النزيل رقم1

الطبعة الأولى – عن النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

Elnokhbapublish.com

1441 هـ – 2020 م

رقم الإيداع: 8982 / 2020

الترقيم الدولي: 0 – 497 – 838 – 977 – 978

الكتاب: النزيل رقم 1

المؤلف: د. عبد الرحمن عسل

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

6 شارع رجاء عبدالرسول، المتفرع من شارع وادى النيل

أمام سور نادى الزمالك– الجيزة – مصر – 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

طبع في مصر

النزيل رقم1

رواية

د. عبد الرحمن عسل

النخبة للنشر والطباعة والتوزيع

2020

الإهداء

إلى رفقاء الدرب... أصحاب البالطو الأبيض.

د. عبد الرحمن عسل

صداقة مودرن!..

استيقظ على أخبار وصلته على صفحته في «الفيس بوك» عن سقوط صديقه في براثن «كورونا» اللعين، وصديقه الآن في طريقه إلى المدينة النائية للحجر الصحي.

بدأت تسري في كيانه رعدة عمَّت بدنه، كان يشعر بها في نبضات قلبه، ولكن كان أثرها الأكبر في اقدامه، التي لم يتمالكها كأن الأرض قد مادت به.

بدأ القلق والخوف يلوي عنقه، ليلقي به في بحر مظلم مدلهم دامس، تتلاطم أمواجه العالية، بحر لا يعرف أعماقه ولا شطآنه، كما أنه لا يعرف العوم، شعر- في الحقيقة- أنه يغرق.

أخذ يتمالك نفسه بعد أن اغتسل، وتوضأ، وصلي صلاة لم يشعر بها، حيث كان عقله مكتظًا بمخاوفه، والتي هي- في الحقيقة- ليست على صديقه، بل على نفسه، فقد كانت تكبله أغلال المسؤولية.

بدأت التساؤلات تنهش بدنه، ما الذي يجري هناك الآن؟، هل سيخبرهم صديقه الدكتور أنهما التقيا منذ خمسة أيام

في المقهى المجاور لمنزلهما؟ وما يستتبع ذلك من محاولة الوصول إليه، لأنه ربما أيضًا يحمل في ثنايا جلده هذا الفيروس الملعون، ثم ماذا عن أبويه العجوزين؟ وما قد يكون حل بهما، وماذا عن كل من قابلهم؟

أخذ يستجمع نفسه، ويستعيد بعض رباطة الجأش التي يتحلى بها، فاخذ يقترب -مترددًا- من هاتفه المحمول، ثم تراجع وتساءل، ربما هم الآن يبحثون في تليفون صديقي ليعرفوا كل من خالطه، فألقى بتليفونه بعيدًا عنه، وهو في حالة من الترقب والتوجس لرنين جرس التليفون أو جرس المنزل. كان يُصاب بالدوار عندما يسمع رنين أيهما، فأصبح هاتفه المحبوب هو مصدر معاناته، فوضعه علي الصامت ظنًا منه أنه سيُسكته.

والآن... ماذا عليه أن يفعل؟

تيبست قدماه، وطلب من زملائه في العمل، في مكالمة خاطفة، أن يعفوه عن عمله هذا الأسبوع، ولم يقدم لهم أسبابًا وأغلق بسرعة التليفون.

كان يبدو عليه الإرهاق الشديد، وعيناه زائغتان، تبحران في عوالم الخوف والترقب، وترتسم على جبهته خطوط الألم والمعاناة.

بالكاد كانت شفتاه تفتح لتلقي السلام على أمه، عندما بادرته بموعد قهوته، التي يشربها كل يوم على عجل قبل الانطلاق إلى عمله، ولكنه كان صامتًا ولم يرد، ولم تستطع عيناه أن تنظر إليها فقد أخذها الحزن إلى الأرض. وبدا للأم أن في الأمر شيء حاولت أن تعرفه، ولكنه تعلل بأن وراءه أمر هام وسيخرج له بعد فترة قصيرة.

خرج من البيت بعد أن أرتدى ملابسه على عجل، خرج هائمًا على وجهه، منكس الرأس تكبله قيود الخوف، لا يدري إلى أين وجهته.

ركب سيارته ولم يكن يعير أدني اهتمام لتلك القذائف المتتالية، التي تنهال عليه من أبواق السيارات والألفاظ النابية، ولا لنظرات عيونهم الشرسة.

كان ذلك لا يبعث في نفسه الغضب الذي كان يبعثه قبل ذلك، كان يشعر في هذه اللحظة أنه لا ينتمي لهذه العوالم البشرية، ولا ينتمون له، بل ينتمي إلى عالم الخوف والانتظار.

كان في الحقيقة يتوحد مع الخوف مكانيًا وزمانيًا، وهذا ربما الذي جعله يتناءى عن تلك السفالة من بني البشر، أصحاب الأبواق العالية والحناجر النحاسية.

وجد نفسه أمام المستشفى الذي كان يعمل به صديقه، حاول أن يرخي أذنيه ليسمع همهمات الناس على الجانب المقابل من المستشفى.

حاول أن يتلصص أو في الحقيقة كان غالبًا ما يتحرش، حتى يصل إلى ما يسكب السكينة على نيران الخوف المشتعلة التي نشبت في كل كيانه، ربما لعجزه عن امتلاك كل أبعاد الحقيقة، التي جعلته لا يملك كل أدوات وإمكانات التحرر والاستغناء.

وما إن حصل على ما يريد من معلومات، حيث علم أن مريضًا مسنًا دخل المستشفى منذ يومين، ثم نقل إلى مستشفي القصر العيني، ثم تبين بعد ذلك، أنه مصاب بذلك الفيروس اللعين. وقد حجزوا كل المخالطين له للبت في أمرهم.

قذفت هذه الاخبار في قلبه بعض الطمأنينة، وارتسمت على وجهه ابتسامة مطحونة بكثير من المعاناة.

وبعد أن التقط أنفاسه بعض الشئ، وهدأ روعه، وجرت الدماء إلى بعض عروقه، وبدأت السحب تنقشع من على نافذة الخوف، بدأ يتنسم هواء الراحة وبعض الثبات، ثم بدأ يتذكر صديقه، ولكنه ظل يتأرجح بين قلبه وعقله.

وفي لحظة أحس باهتزازة من تليفونه المحمول، فالتقطه فوجد أمه تهاتفه، فأخبرها أنه في الطريق إليها، وأنه قد أنهى مهمته بنجاح.

وفي طريقه انتبه إلى كلمات مبعثرة منحوتة على ميكروباص، «الصديق وقت الضيق».

❋❋❋

سقوط النائب في قبضة «كورونا»

لم يكن يدري نائب الأمراض الباطنة، أن الأقدار تعد له شيئًا لم يكن في تقديره، ولا في حساباته، ولا حتى في تخيلاته، فلم يكن يسعي في طريقه إلا إلى اكتساب بعض النقود، لتكون عونًا له في حياته.

كان يسعي إلى اجتياز بعض الامتحانات التي تتكلف مالًا، ويسعى في نفس الوقت أن يجمع الله بينه وبين محبوبته، ليهيئ لها ولنفسه قدرًا من الحياة الكريمة.

كان يواصل ليله بنهاره بين كسب العيش والتحصيل العلمي. ولكن- في حقيقة الأمر- كان الجحيم في طريقه، يسعي إليه. فهو يعمل في مستشفى قريب من محل السكن، الذي استأجره هو ومجموعة من الأصدقاء، بعيدًا عن أهله الذين يقطنون في إحدى المحافظات البعيدة.

ولكن كان لتلك الليلة المشؤومة، نصيبًا وحظًا كبيرًا للاحتفاظ بها في ذاكرته طوال حياته، حين أتت إليه تلك الأسرة مع الشيخ المُسن، والذي كان تحت وطأة الكثير من الأمراض المزمنة المنتشرة في هذه السن، كان الشيخ المسن يعاني من الهذيان،

وعدم القدرة على السيطرة على حركته، والسعال المستمر الذي لا ينقطع، وحرارة شديدة ألمت به.

كان النائب متوجسًا في بداية الأمر لفحصه، ولكن لم يكن يملك خيارًا، لم يملك إلا أن يقدم العون، ولم تجدِ الاحتياطات التي كان دائمًا حريصًا عليها نفعًا، حيث كانت الحالة خارجة عن السيطرة، فقام بتهدئتها، ثم نصح أهل الشيخ المسن، بعد أن شك في أنه قد يكون مصابًا بذلك الفيروس اللعين، أن يذهبوا به إلى مستشفي القصر العيني، لأخذ المشورة.

لم يخبر أهل المريض بما كان يجول في خاطره ويشك فيه، على أمل أن تكون للأقدار كلمتها، وألا يثير الفزع في النفوس، وقد ينجو وينجو مريضه.

لا يتذكر كيف قضى بقية يومه في العمل داخل المستشفى، فقد أخذت ترفرف الهواجس والظنون بجناحيها داخل عقله، وكان طنين القلق الصاخب يشتت أفكاره، ويفقده التركيز.

أنهى عمله في المستشفى، ثم حمل حقيبته المثقلة بالهموم معه إلى بيته، ولم يفكر إلا في كيف ستمر عليه تلك الليلة، ومتى وكيف سيأتي الصباح.

كان ينتظر إشراقة شمس ليلته الحزينة، ولا يعرف ما يخبؤه له يومه التالي.

قضى ليلته في أرق، مكتفيًا بأحلامه المزعجة، والتي لم تسعفها شحنات الطاقة الإيجابية التي ما فتأ يتلوها على نفسه قبل نومه.

لم يدم الوقت طويلًا، فقد وصلته الأخبار مع إشراقة صباحه، عبر الفضائيات، أن هناك مريضًا محولًا من مكان ما، قد توفي اليوم بسبب الفيروس اللعين.

شعر بالاهتزاز، وكأن نيزكًا من السماء ضرب الأرض التي يقف عليها، وأحس أن تلك الغلالة الرقيقة من الأمل والكلمات المهدئة، التي كان يحتمي بها قد تمزقت، وأنه على شفا السقوط إلى الهاوية.

كان هاجسه الأعظم لا يتعلق بإصابته، ولكن ما سوف يترتب على ذلك الأمر، فربما تتغير حياته كلها.

بدأ في سرية تامة، يعد نفسه لما هو قادم، فحزم حقائبه ووضع الملابس المهمة، وكذلك الكمبيوتر المحمول وبعض الكتب في حقيبة منفصلة، وتحسبًا لأي طارئ، أخذهم معه إلى سكنه الخاص في المستشفى، الذي يقيم فيه وقت عمله، وكان له ما خطط له.

استدعاه رئيسه في العمل وبعض العاملين معه لاجتياز تحليل الكشف عن هذا الفيروس اللعين.

لم يندهش أو يعتريه الذهول الذي أصاب رفقاءه الحاضرين معه في الفحص، فقد كان مهيئًا لذلك، ولم تؤلمه إلا نظرات العيون التي يتناثر منها شعاع الشفقة، وكذلك العيون المتشفية والتي كانت تختبئ خلف البسمات الباهتة، والشفاه المتدلية والتجاعيد الصارمة.

كان لا يشعر إزاءهم بأي كراهية، فقد كان يكتفي بابتسامة رقيقة، مقدرًا تلك الظروف. ولكنه شعر لأول مرة في حياته كأنه مجرم، ولا بد له أن يعترف أمامهم بجريمته، وأن يتوسل ويشعر بذنبه، ويحاول تبرير جريمته من هذا الذنب، وكأنه هو الذي أذن لهذا الفيروس اللعين أن يخترق المكان ويستولي عليه.

شعر وكأنه المسؤول عن تصاريف القدر.

كان يشعر أنه كالمحاصر في حلبة، يدور حول نفسه ولا يجد له مخرجًا ولا منفذًا يُطِل منه، ويظل يدور حتى تنهك قواه فيقع في شبكة الصياد خائر القوى.

ولكنه كان يمتلك رباطة الجأش، مما جعله يتماسك ويستعد لما هو أسوأ، ويتساءل:

ما الذي حدث لي اليوم في الأرض بعد ما كنت بالأمس في السماء؟!

والحقيقة أيضًا، أن الأمور لم تكن كلها بهذا السوء، فليست كل السُحُب ترعد وتبرق بل قد تمطر أحيانًا، فرغم ذلك كان يمتلئ بالأمل، وأن هذا ربما يكون العُسر الذي سيتبعه يُسرين.

ولكن تلك المشاعر الإيجابية سرعان ما خفتت واختفت، فقد طلبوا منه أن يذهب إلى مكان ما في المستشفى حتى تظهر نتيجة تحليل الفيروس.

ذهب وحيدًا مُثقَل الخطوات، منكَّس الرأس، خوفًا من أن تتلاقى عيونه الحزينة بأحد ممن يعرفهم.

كان يسير في الطرقة وهو يعلم أنها ستكون المرة الأخيرة على أي حال من الأحوال.

وفي مكان العزل، لم يكن رفيقه إلا هاتفه المحمول.

وقد ظلَّ في العزل لا ينظر إلا إلى هاتفه، يعبث ببعض الألعاب التي تعوَّد عليها لتحميه من تلك الهواجس المميتة، وليطردها من بؤرة شعوره.

وفي لحظة خاطفة، دخل عليه مَن كان يعرفهم من ملابسهم، إنهم المسعفون، يلبسون الكمامات وملابسهم المميزة التي قد

سبق أن رآها على منصات التواصل الاجتماعي من خلال الهاتف الجوال للذين يتعاملون مع هذا الفيروس اللعين.

نظر إليهم، وقد ارتسمت على وجوههم الجدِّية والصرامة، مما أرهق تفكيره، ولم يجد له تفسيرًا...

ما الأمر؟!

قبل أن يتلفظوا بكلمة، هيأ نفسه سريعًا وهو صامت، واستسمحهم بأن يحضروا له حقيبته والكمبيوتر المحمول الخاص به من الغرفة الخاصة به في المستشفى.

انطلق يمشي خلفهم بابتسامة لا تخفي التوجس والأسى، وهو يحدث نفسه- لأول مرة- بصوت عالٍ:

لماذا كل هذا العذاب؟

***

رحلة الحَجْر الصِحي

كانت تلك هي المرة الأولى التي يركب فيها الطبيب في المكان المخصص للمرضى داخل عربة الإسعاف، مشتبهًا في أنفاسه التي تزفر شبحًا ووحشًا متغولًا يشبه الجِنِّي الذي يبحث عن أنفس أخرى يسكن فيها.

أرادت الهيئات الطبية ترويض هذا الجِنِّي بداخله، ويذهبوا به بعيدًا ليضعوه في قفص الحجر الصحي حتى لا يهرب.

أما هو فلم يكن لديه أدنى شعور بما يقوم به هذا الجِنِّي في جسده، كل ما يعرفه هو ما يتداولونه عنه، وما يحكونه من قصص وأساطير، وحول ما يمتلكه هذا الجنِّي من قوى خارقة عجيبة، وأنه هرب من قمقمه ومكمنه الخفي في الشرق الأقصى، في الصين، واستطاع أن يتسلق سورها العظيم، ليجوب العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه، وأنه يسكن جسده الآن.

حاول أن يخرجه لكي يراه، بالسعال، أو بالتقيؤ، ولكن بلا جدوى، ولم يكن له من بد في النهاية إلا أن يُهَدئ من روعه ويستسلم للأمر.

جلس في المكان الخلفي داخل عربة الإسعاف، حيث كان يرقد مرضاه عندما كان يتولى إحاطتهم برعايته أثناء نقلهم للمستشفى للعلاج.

انطلقت سيارة الإسعاف، وهي تطلق صفيرها الذي يخلع القلوب، ويؤجج الذكريات الأليمة في النفوس، ثم أخذت تتعارك وتتحرش بالعربات الأخرى، وتسير في حركات بهلوانية، كأنها تعبِّر عن ابتهاجها وتتباهى باقتياد ذلك الفيروس المجرم المسجون في القفص الصدري لأحد الأطباء إلى الحجر عليه.

أخذ مكانه وهو يتأمل السائق ورفيقه في المقدمة، فقد كانا يبدوان له من ملابسهما الغريبة، كأنهما محنطين على مقعديهما.

وضعا أوراقه أمامهما في مقدمة العربة، أوراق الاتهام والحكم في نفس الوقت بلا حق في الدفاع، والتي تحكم دائمًا بالعزل المنفرد.

استدار وأرخى سمعه لينصت، ثم غابت عيناه وهو ينظر من نافذة الإسعاف، كانت عربة الاسعاف تنهب الطرقات، تفتح له كتاب الحياة المصور حيًا أمامه، تُقلِّب له صفحاته على عجل، ليقرأ من سطورها ما يشاء، بلا أرقام، بل صورًا متناثرة للشوارع والمحلات المتراصّة والتي لا تحمل إلا إسمًا يقرأه على جبينها.

أما ما يجول في أعماقها فقد أغلقتها رياح الفيروس، وطردت مَن بداخلها، وأوقف الفيروس عليها حراسه، يحدد لهم مواعيد دخلوهم وخروجهم.

ولم تعد هناك تلك الأبخرة والأدخنة التي تصعد إلى الفضاء من النرجيلة في المقاهي، مع ضحكات المنتشين، فقد كتم الفيروس اللعين أنفاسها، ولا ذلك الزحام من الأيدي المختلطة ولا الأجسام المتلاصقة المتسابقة للوصول إلى الأطعمة السريعة والوجبات الساخنة من المحلات ذات الماركات المشهور.

لم يعد منها إلا أثر فقط يعبِّر عن وجودها، ولم تعد كما كانت تلك العشوائيات الصاخبة بـ «التوك توك» والموسيقى الصاخبة التي تنبعث منه، وتجعل كل دواب الأرض تفر من أمامه مذعورة.

لم يعد يرى في الشوارع غير تلك العربات التي تسير متراصَّة في صفوف كأنها تقدِّم واجب العزاء في تلك المحلات المغلقة.

لم يبق في الشوارع غير أسراب الكلاب التي لم تعد ضالَّة، بل أصبحت تمتلك أماكنها وتعثر على مأواها، والقطط التي تتشاجر فيما بينها أملًا في العثور على فتات الطعام في صناديق المهملات المتفرقة والمبعثرة على جنبات الطرق.

كان يتأمل كل ذلك في عجالة، ويندهش لتلك التفاصيل التي تلوح في ذهنه بهذه القوة وذلك الوضوح على الرغم مِن سرعة عربة الإسعاف، يبدو أن عقله كان في حالة من النشاط والتوقد لم يعهدها من قبل.

كان النائب يشعر أنه ينضوي تحت الكل، الذي يخفي في طياته سحرًا لا يقاوم، أحب في الحقيقة كل شيء.

كان يريد أن يتوسل لهم بأن يأخذهم بين أحضانه، يلثمهم بشفتيه، قبل أن يفارقهم، فهو لا يدري متى يعود.

راوده إحساس أنه لم يرهم من قبل، يشعر أن الكل يناجيه، يهمس في أذنيه، شعر لأول مرة أن في الكل روحًا عجيبة ممتلئة بالجمال والسِحر، ترسل له ابتسامتها التي خانه فيها أصدقاءه، شعر أنها تقترب منه، ينتمي إلى دفئها، وأنها تلوح له تودِّعه، وتذرف دموعها لفراقه، وأنها هي التي تعرفه.

انطلق بهذا الشعور العميق، أن الكون يتناغم ويعزف سيمفونية رقيقة وحالمة، تمحي من ذاكرته ومن ملفِّه عريضة الاتهام التي وصمه بها ذلك الفيروس اللعين.

اخترقت عربة الإسعاف تلك الطرقات وانطلقت في فضاء تلك المدن المنكوبة، في طريقها إلى مرسي مطروح حيث اقامت الدولة هناك صرحًا للحجر الصحي لهذا الشيطان اللعين.

انطلقت عربة الإسعاف عبر طريق الإسكندرية الصحراوي، وقد آنسته في طريقه أوراق الشجر الزاهية التي تحملها الفروع الصغيرة، من الأشجار المتراصة على جانبي الطريق التي غسلتها ثخات المطر الخفيف. كانت تبدو في قلبه كأنها أعلام تلوح له، تعبِّر عن ترحيبها به، وتجعله في مصاف العِظام.

بدت الأشجار المتراصَّة كأنها تفتح له أزهارها لترتوي عينيه من جمالها.

كان تساقط ثخات المطر الخفيف يمحو الغشاوة من فوق ثمار البرتقال لتبدو في رونقها وسحرها، وتنزلق أيضًا قطرات المطر على نوافذ عربة الإسعاف، وكأن عيون السماء تبكي لتغسل أحزانه وآلامه.

شَعر في النهاية بالحياة تدب في أوصاله بهذا الوهج الشديد. وتساءل في نفسه:

- إلى أين المسير؟.. هل هو طريق الموت كما يريد الفيروس اللعين والشيطان الرجيم، أم هو في طريقه لحياة ترسمها له نفحات القدر بزخمها الوهَّاج؟!

في النهاية شعر بالهدوء يتسلل إلى اعماقه، فأخذه بعد ذلك النوم إلى عالمه، أخذه إلى ثباته العميق، دون أن ينبت له ببنت شفة

عن أي شيء في أحلامه، أراد له أن يستريح ويستريح فقط، من كل شيء، حتى من أحلامه.

مرَّت سيارة الإسعاف على نقطة تفتيش مدينة العلمين، وما إن أخذ شرطي المرور نظرة خاطفة على مَن بداخلها، حتى أخذته الدهشة من تلك الكائنات الفضائية، فلم يكن يرى سوى أعينهم، ولم يكن ليجهد عقله في أن يخمن وجهتهم، ولا ليسألهم عن هويتهم، فقد قرأهم من هيئتهم، وعرف من عيونهم كل شيئ، بل ربما بعث فيه ذلك المنظر خوفًا وفزعًا عميقًا لما آلت إليه الأمور، وخشي على نفسه من الاقتراب منها.

كان الحذر سيد الموقف.

ألقى شرطي المرور لعربة الإسعاف التحية وتركها تنطلق، مع تمنيات في نفسه بألا تعود، وألا يراها مرة أخرى أثناء ورديته.

مرَّ وقت طويل منذ انطلاق سيارة الإسعاف في طريقها إلى الحجر الصحي، والنائب يغط في النوم مستلقيًا على السرير المخصص للمرضى داخل العربة، واضعًا يديه تحت راسه، ورجله اليمنى على اليسرى، يرنو بعينيه إلى سقف العربة، يتأمل شريط حياته الماضية، وما كان يأمل، وإلى أين تبحر به رحلته في هذا العالم الجديد من الشك، وتساءل:

- هل سأستعيد نفسي من جديد، أم سيخونني جهازي المناعي مع ذلك الجني؟

كان في حقيقة الأمر يخشى من نفسه- التي أهملها منذ أن وطأت قدماه كلية الطب- أن تتحالف مع ذلك الجني ويصرعانه أرضًا.

بدأ يسترجع قائمة أصدقاءه، ويتساءل:

- ماذا يظنون بي الأن، وقبل كل هؤلاء خطيبتي وأهلي، ماذا سأقول لهم؟!

شعر بالألم من اتهامه بشيئ لا جريرة له فيه، وبدأ يتملكه شعور الوحشة الذي كاد يدمره.

بدأت تحاصره وتنهشه الأسئلة التي لا يعرف لها جوابًا. ومنها: لماذا يسمى الحجر الصحي بهذا الاسم- والذي يمارس فيه ذلك النوع من العلاج الذي يمارسه بعض المشعوذين، بإخراج الجني من بين أنفاسه عن طريق عزله وحرمانه من البشر الآخرين.

كما أن هذا الاسم- الحجر الصحي- يحمل السمعة السيئة التي تطلقها المحاكم على أصحاب العقول المتجمدة، التي لا تستطيع التصرف أو إدارة شؤون حياتها، من المتخلفين عقليًا، ومن كبار السن الذين أصابهم الخرف، ومن أصحاب الأمراض النفسية الشديدة... وتساءل:

- لماذا لا تسمى باسم آخر؟..

لاحظ أن عقله بدأ يأخذه بعيدًا إلى أشياء ثانوية. ثم انتقل لسؤال آخر:

- لماذا هذا الشعور المخيف الذي ينتاب الطبيب عندما يُصاب بذات المرض الذي يعالجه، وهو يتعامل مع مَن يصابون به ربما بالعشرات كل يوم؟.. لماذا يصاب الطبيب بالارتباك والحيرة ويعتريه الخوف والقلق الشديدين؟.. ولماذا لا يحسن التصرف حيال نفسه، ويكون للانكار والتبريرات اليد الطولي في الحكم عليها؟

كان يحاول بهذه التساؤلات أن يدرا ألمه النفسي، ولكن كانت الإجابات الناقصة، توقعه في فخ إختلاق الأسباب التافهة والإجابات المغلوطة، فكان ذلك يؤرقه أكثر مما يبعث في نفسه الأمل.

لم يكن يتحمل في تلك اللحظات، التناقض والغموض وعدم اليقين والنقصان، ولم يكن أمامه إلا أن يستعين بالإيمان والصبر والمثابرة، فربما ينكشف بهم الغموض، ويكتمل النقصان ويرى حقيقة الأمور.

شعر النائب لوهلة أنه ممتلئ بالفراغ، وقد بلغ به الملل والسأم مبلغه وفاض، فأخذ ينظر من نافذة الإسعاف ليبصر على جانبي النافذة ما سبق أن سمعه عن القرى السياحية فأصابه الفزع، حيث

رآها كأنها أثوابًا رمادية لا تظهر بالكاد–على استحياء– إلا بقايا من جمال ذلك الجسد الأبيض البض النابض من ساحل البحر الأبيض المتوسط بأمواجه المتهادية، وبالتحايل، على تلك الفيلات والقصور والمنتجعات والقرى الميتة، والتي كانت تخفيه وراءها وتهدم كبرياءه.

انتبه النائب إلى أن سيارة الإسعاف بدأت تقترب من مرسى مطروح، تلك المدينة الساحلية الجميلة على أطراف مصر الغربية، كان اسمها يخفف عنه ويبعث في نفسه الكثير من الأمل، حيث قذف إلى ذهنه تلك النغمات التي شَدَت بها المطربة ليلى مراد على شواطئها الساحرة العجيبة.

في تلك الأثناء، تذكَّر أُمَّه، فهو لم يهاتفها منذ الأمس، حيث أغلق الفيروس طريق الذاكرة إليها، فقد كان يسمح فقط لطريق القلق وصفحة الألم ليقرأ منها، وها هو الآن يفتح له صفحة والدته.

اتصل النائب بوالدته وأخبرها أنه ربما لن يرسل لها نقودًا هذين الأسبوعين لأنه في مهمة قومية بمنطقة نائية، قد يصعب عليه أن يرسل لها منها نقودًا، وطلب منها أن تدعو له بالتوفيق، ثم أخذ يداعبها كما اعتاد على ذلك من قبل.

بعدها أخذ ينظر في شاشة هاتفه المحمول ليعرف مَن قد يكون اتصل به في تلك الأوقات الماضية.

لم يندهش من أن أيًا من أصدقائه لم يهاتفه، ولكن الذي كان يعصره ألمًا هو عدم تلقي أي اتصال من خطيبته، فأراد أن يكذب حدسه، فهاتف أصدقائه الواحد تلو الآخر بادئًا بخطيبته، فلم يسمع غير تلك الرسالة الرتيبة القادمة من هواتفهم: {هذا الهاتف ربما يكون مغلقًا، نرجوا الاتصال في وقت لاحق، وشكرًا}!

غاص في حزن عميق، وأدرك حينها أن الفيروس الذي يقتل الصداقة، ويقتل الحب، أكثر لعنة وأشد فتكًا من ذلك الشيطان المعروف باسم كورونا.

***

طبيعة ساحرة

حول الحجر الصحي

اقترب من مدينة مرسي مطروح عند الغسق، أذهله جمالها الأخاذ وسكونها الحالم.

تأمل الجبال الشقراء، والشمس ترسل فوقها أشعتها الوردية، لتكسو رأسها بتاج الوقار والهيبة والجمال.

نظر إلى الجبال وهي تبسط أقدامها لتغتسل في البحر، الذي نسجت ألوان الغسق مناظر لا يمكن له أن يصفها، لأنها غير قابلة للوصف.

أخذت الشمس لبَّه وهو ينظر من النافذة أثناء مرور سيارة الإسعاف على الساحل.

رأى الشمس تنام في سكون وهدوء على سرير البحر، ملتحفة برداء رمادي جميل ألقته عليها ظلمة الليل، الذي أضاء فيه القمر نوره الحاني الباسم، ليبعث في كل النفوس الهائمة والنائمة الطمأنينة والسكينة والراحة والأمان. تساءل:

- أين كنت من كل هذه الطبيعة الساحرة؟

اقترب أخيرًا من مقر الحجر الصحي على أطراف المدينة. ودخلت عربة الإسعاف بلا ضجيج، بلا كلمات، بل كانت الإشارات والإيماءات هي اللغة المعترف بها في هذا الصرح المعروف بالحجر الصحي، والذي كان يلتحف بعباءة سوداء من السكون البغيض... ثم أشار له سائق الإسعاف بأن يستعد للنزول.

نزل من عربة الإسعاف حاملًا حقيبته بيده اليمنى وجهاز الكمبيوتر المحمول على كتفه الأيسر، ولم يكن يدور في ذهنه شيىء، فقد تحطم القلق والحزن على عتبات الطرق، على جمال الحياة.

أذهله فتور الجالسين في الإستقبال، الذي انبعث من الوجوه المكفهِّرة، مما ألقى الرعب في روعه، وشعر كأنه على بوابة الموتى.

قدَّم السائقان الملتحفان بعباءة الموتى أوراق النزيل إلى الاستقبال، ثم أومأوا له بالاقتراب، وما إن دخل من الباب حتى أشاروا إليه أن يتبع الأسهم ليصل إلى حجرته- رقم -1 في الدور الأول.

لم يستطع أن يكتم في نفسه ضحكة مطحونة بالبؤس، فقد ذكَّرته تلك الإشارات بآخر مرة قضى فيها ليلة في أحد الفنادق المطلة على النيل.

سارَ أمامهم وهو يهمهم بكلمات غير مفهومة، ربما لتقديم الشكر لعدم فحص حقيبته كما يفعل بالفنادق، أو لعدم سؤاله عن بطاقة السحب الإلكتروني، أو لشكرهم على الإقامة الكاملة بالمجان، أو ربما لشيء آخر، وربما قد يكونوا فهموا كل ذلك، فبادلوا ابتسامته بابتسامة آلية.

لم يسأله أحد عن أي شيء ولا حتى اسمه. كان النزيل رقم واحد، وهذا كل شيء عنه. ربما كانوا يعلمون أنه طبيب، وأنه سيتولى أمر نفسه، وسيقوم بكل شيء، فقد أتى لا يشكو ولا يتذمر، رابط الجأش، فألقى ذلك في روعهم أنه من الحالات التي تحت الملاحظة، وهذا كل شيء.

سارَ في الممر مسترشدًا بالأسهم المُلصقة على جانبي الممر، وبأرقام الحجرات، أحس أنهم قد استعدوا لكل شيء.

قرأ رقم «1» على باب الغرفة، أمسك بقبضة الباب وفتحها، وعندما دخل الغرفة لاحظ أثاثها البسيط، فقد كان بها سريرين، وعدد اتنين «كومودينو»، ومائدة صغيرة بجوار أحد الأركان، وكرسيين بلا مساند.

كانت هناك نافذة مفتوحة محاطة بسياج حديدي من الخارج، تطل على ساحة كبيرة من الرمال، محاطة بسور ارتفاعه نحو

مترين. وتعلو السور مصابيح ترسم حوافه، ينبعث منها ضوء خافت يتساقط على الرمال المحيطة.

شعر النائب بعدم الراحة لعدم وجود مساحات خضراء أو أشجار، وتوقع أنهم ربما أرادوا ذلك عن قصد، حتى لا يسمحوا لهذا الفيروس أن يتنفس ويتنعم فتطول إقامته، يبدو أنهم أرادوا أن يحل به الضجر والملل ويموت كمدًا غير مأسوف عليه، أو يولي هاربًا بلا عودة!

اطمأن النائب لأفكاره فأغلق نافذة الغرفة وفحص سريره والغطاء، ووضع الكمبيوتر المحمول على المائدة وقربها من سريره، ثم فتح حقيبته وارتدي «بيجامته» بعد أن خلع ملابسه، ولبس «شبشبه» وخرج من الحجرة يبحث عن دورة المياه، ليقضي حاجته ويغتسل ويتوضأ.

عندما خرج من الغرفة، كانت الإشارات والأسهم خير دليل وأكبر معين في رحلته للذهاب والعودة.

عاد إلى غرفته ثم أغلق الباب، ولم يكن له أن يغلقه من الداخل كما تعوَّد، لعدم وجود «ترباس» من الداخل.

تفهم ذلك، لكنه شعر أن هذه هي أول خطوة في سقوط الورقة الأولى من أشجار حريته وخصوصيته.

أعاد إغلاف حقيبته، بعد أن أخرج منها سجادة الصلاة، ثم وضع حقيبته تحت السرير.

وبعد أن فرغ من تأدية كل فروض الصلوات التي فاتته، استلقى على سريره ممددًا جسده المرهق، واضعًا يده تحت رأسه، ورجله اليمنى على اليسرى كعادته دائمًا، وحمد الله على أنه ما زال يمتلك تلك الرفاهية.

كان يتوقع وهو ينظر إلى سقف الغرفة أنه سيكون مثل خشبة المسرح، تعرض ذاكرته عليها له أجزاءً من مسرحية حياته، أو مشاهد من أفلام الآخرين، أو لوحة من رسومات الواهمين، أو حلمًا من أحلام المستقبل، أو صورًا من أصحابه، أو ملمحًا من ملامح خطيبته، أو حتى ذكريات من طفولته.

كان ينتظر، لكن لم يحدث أي شيء من كل هذا، فقد شعر كأنه طفل يولد من جديد بصفحة بيضاء، وقد تكون تلك الليلة هي أول ليلة من عمره.

لم يزعجه ذلك بل ربما ألقى في روعه شيئًا لم يستطع أن يصفه أو يحدد معالمه، ربما تكون أيامه وأقداره هي مَن ترسم صورتها وتعطي ألوانها.

شعر في تلك اللحظة بهدوء غريب، وبروح غريبة تسري في أعماقه.

أنزل قدمه اليمنى وأغلق عينيه ومال على جنبه الأيمن كما تعوَّد، وذهب في نوم عميق منتظرًا إشراقة صباح اليوم التالي.

***

الوافد الهائج!

استيقظ النائب على وقع دقَّات على الباب، وقد تبعها فتحه بواسطة شخص يرتدي ملابس الكائنات الفضائية، ثم وقف بعيدًا عند الباب.

وقبل أن يفتح النائب عينيه المنغمستين في النوم، بدأ الكائن الفضائي يقذف في وجهه ببعض الإرشادات التي عليه اتباعها، ومنها ألّا يتجاوز منطقة الحمام بأي حال من الأحوال، وأن الطعام والشراب سيصل إليه في مواعيد محددة، وسيتم قياس درجة حرارته مبدأيًا مرتين في اليوم، والالتزام بالهدوء التام، واستعمال الجرس بجانب السرير للضرورة القصوى.

كان يشعر مع كل أمر من هذه التعليمات، أن أوراق حريته تتساقط الواحدة تلو الأخرى، ولكنه حمد الله أن الجذور والسيقان والفروع ما زالت على حالها، وكان ذلك يبعث في نفسه الأمل، ولكن الأمل الأكبر أنه ما زال مسؤولًا عن نفسه وعمن سيرافقه في الغرفة بعد ذلك.

انصرفت الكائنات الفضائية وتركت الباب مفتوحًا، فترك النائب سريره بعد أن نفض غبار أتربة الألم من الأوامر والارشادات.

ارتدى «شبشبه» الصديق، وحمل «فوطته» الحبيبة، ليرافقانه إلى دورة المياه، فذهب وعاد بهما سالمًا، ثم أغلق الغرفة وفتح النافذة، وأخذ يتأمل المنظر مع إشراقة أول يوم له في هذا المكان.

اكتشف النائب أن للرمال الممتدة من نافذته حتى السور، رونقًا وبهاءً، خاصة عندما تغوص فيها أشعة شمس الصباح الدافئة، وتغسلها قطرات الندي، وأن لها رائحة لا تقل روعة عن رائحة الزهور.

لم يشعر بثمة شيء غريبٍ وهو يتنسم رائحة الرمال، كان ينقصه فقط أن يضعها بين يديه وتداعبها أنامله، وأن يغوص في أعماق حباتها بعينيه.

كان يريد أن يستنطق الرمال، ربما لتحكي له الأساطير والحكايات عن الخيول والقياصرة، والملوك والتيجان، أو حتى عن الدماء التي تشربتها في اعماقها.

كان للرمال سحرًا لا يقاوم، غاص فيها كمن يغوص في اعمق البحور، كمن يبحث في الكهوف والتلال عن الكنوز، عن الإسكندر الأكبر، عن كليوباترا، عن القيصر، إنها الرمال التي

صنعتهم، بعد أن غاصت خيولهم فيها، فلم يحققوا مجدهم إلا بعد أن ارتوت هذه الرمال من دمائهم.

الرمال تصنع المجد... تصنع الكبرياء... كما تصنع الجمال. وفي النهاية، الخلود، جنبًا إلى جنب.

لم يخرج من تخيلاته إلا على صوت جلبة تأتي من خارج غرفته. كان هناك صياحًا ونحيبًا شديدًا، فذهب إلى الباب يستطلع الأمر، فوجد أحد لابسي زي الكائنات الفضائية يصطحب معه شابًا يسير بصعوبة، تتثاقل خطواته مع بكاء شديد، يتخلله تأوهات كان النائب يألفها من المرضى الذين يعانون من كسور في العظام أو بعد الإصابة بجروح خطرة. لكنه عندما تأمل هذا الشخص لم يجده يعاني من أي إصابات ظاهرة.

اقترب المرافقون من الحجرة وأدخلوا الشاب إلى الغرفة، وحاولوا أن يهدءوا من روعه وهم يشيرون إلى النائب كقدوة للهدوء والثبات ورباطة الجأش.

جلس الوافد الجديد على سريره المقابل لسرير النائب، وهو يخفي راسه بين يديه، وبصره متجه نحو الأرض، يهمهم بكلمات تختلط بدموعه، وترتبك مع أنفاسه التي تترد في صدره بلا انتظام.

كان الشاب لا يدري ماذا يقول، وكأن معه شخصًا آخر، يكلمه أحيانًا، ويسترحمه أحيانًا، ويلعنه أحيانًا أخرى.

ظلّ الشاب على هذا الحال فترة ليست بالقصيرة، ثم هدأ بعد أن أنهكه التعب، وربما بعد أن تخلص مِمَّن كان يتكلم معهم في عقله، أو ربما بعد أن ألقى ولو قليلًا تلك الحمولة التي ترهق قلبه.

استلقى الوافد الجديد على السرير يتأمل سقف الغرفة، أو ربما ينظر إلى لا شيء، ثم بدأ مرة أخرى يلوم نفسه أحيانًا، ويلوم الآخرين كثيرًا، قائلًا لهم إنه يريد الاعتراف على نفسه، ويريد منهم أن يصدِّقوه، وأن يظهروا له الحقيقة، كان يبدو وكأنه تحت الأنقاض، والركام فوق رأسه، ويجاهد أن يزيحه، وأن يجد مخرجًا لأنفاسه، كان يرى نفسه ضعيفًا.

ثم انفجر في البكاء مرة أخرى ولكن كان بكاءً مكتومًا، يخلو من الآهات والحشرجات. وفي النهاية، استدار إلى ناحية الجدار وبدأ يهدأ حتى غاب في غفوة من النوم العميق.

وبعد فترة ليست بالطويلة، استيقظ الوافد الجديد وأخذ يتقلب فوق سريره، وعندما استدار واعتدل على سريره وجد حقيبته بجانبه وقد أحضروها له من الاستقبال، ففتحها وأخرج «شبشبه» وارتدي «بيجامته»، ولاحظ النائب وهو ينظر من النافذة، فاستسمحه أن

يدله على الحمام، فقام إلى الحمام، مهتديًا بالأسهم كما أشار إليه النائب رفيقه في الغرفة.

وعندما عاد وجد النائب ما زال على حاله، فاقترب منه وبادره بالتحية ثم سأله:

– ألا تعرف ما يحدث؟ ماذا يجري في العالم؟

أجابه النائب:

– إن أردت الحقيقة، فأنا لم أكن أعرف ما هو العالم أصلًا، كان عالمي هو كتبي وأحلامي.

ثم أردف النائب:

– إنك تكلمني عن شيء غريب لم أكن أعرفه، فقد اكتشفته وشعرت أننا نعيش فيه فقط منذ ثلاثة أيام، بعد أن شقَّ الفيروس طريقه إليَّ، وأخبرني– أي الفيروس– أن هناك عالم، وأنني أسيطر عليه الآن، هكذا قال الفيروس، وأن من يتحرك فسيكون مصيره الهلاك وسألقي به في سلة النفايات، يستوي في ذلك الصغير والكبير، والملك والحقير، وسأعلمكم الآن معنى ما تتشدقون به، وتلوكه ألسنتكم، وتلعبون به كالكرة بين أيديكم، وتقذفونها بينكم بأرجلكم، سأعلمكم معنى المساواة، قال الفيروس كل ذلك بحزم وقسوة.

وتابع النائب:

- أيقظني ذلك المارد على هذه الحقيقة، ثم اكتشفت بعد ذلك هذا العالم السيئ، البهيم، المتواري خلف الأنغام والشعارات الزائفة، والذي تعبث به حيوانات قذرة لا يهمها ولا يعنيها إلا أحشائها، ولا تملك ما يسمي عقلًا إلا في أحشائها، اللغة التي تعرفها هي النهم.

توقف النائب برهة والتفت إلى رفيقه في الغرفة، وقال:

- عذرًا إذا كنت نسيت أن أسألك عن اسمك، فقد أخذنا منعطف شجون الحديث بعيدًا، ما اسمك؟

قال له رفيق الغرفة:

- عادل...

واصل النائب حديثه، وقد اعتصره ألم شديد:

- للأسف أيها العادل، أنني كنت جزءً من هذا الزيف، خيطًا من نسيجه، إبنًا من أبناءه، واحدًا من ذلك القطيع، من الرعية.

قالها النائب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة تحمل سخرية شديدة، وأضاف:

- كنت مغمض العينين، حتى أيقظني ذلك الفيروس على زيف هذا العالم الظالم. ولذلك أيها العادل، أدهشني منك تلك الدموع

المنهمرة والآهات المتوالية، وأنا أرى من هندامك أنك على قدر من الوجاهة، وربما تمتلك قدرًا وافرًا مما يسمى التعليم، ولكنني تداركت الأمر، وشعرت أنك مثلي لم تدرك ذلك العالم بعد.

أومأ عادل برأسه كأنه يوافقه على ما يقوله، وقال له:

– قبل أن تسترسل، اسمح لي أن اتعرف على اسمك؟

قال له النائب، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مختلطة بالرقة والسخرية الخفيفة:

– لا تندهش، فاسمي ينتمي أيضًا كاسمك إلى تلك الأسماء المزيفة التي نتباهى بها... اسمي سيد، ولا أدري سيد مَّن؟!

واصل النائب حديثه وقال:

– إن أردت أن تعرف لقبي أيضًا، فهو السعيد...

بادره عادل قائلًا:

– لقبي أنا هو أبو المجد.

ضحك سيد ضحكة عالية، وقال له:

– إن لقبك هو ما كنت أبحث عنه، ولكن المجد فقط وليس أبوه!

ارتسمت علي شفتيهما ابتسامة تنم على مدى الراحة وبداية الإنسجام بينهما، وقال له عادل:

– لقبك أيضًا هو ما كنت أبحث عنه، السعيد.

انفرجت الأسارير مرة أخرى، وأخذت تقل الكلفة بينهما. ثم قاما من مكانهما ووقفا ينظران من النافذة... إلى الفضاء الرحب، وبادره عادل متسائلًا:

– لماذا كل هذه المساحة الكبيرة من الرمال حول هذا السور؟

أجابه سيد:

– ربما يريدون حين يخرج الفيروس من أجسادنا، أن يعاني الفراغ ويضل طريقه ويتوه في الصحراء، فهم يرون أن له أقدام!

وكان لضحكتهما العالية صوتًا مدويًا لأذنيهما المتقاربتين. ثم سأله سيد:

– كيف أتيت إلى هنا، ولماذا كل هذا الخوف والألم وتلك الهمهمات والبكاء والآهات والنحيب؟، لماذا كل هذا وأنت تملك الآن هذه الضحكات والسخرية الهائلة؟

أطرق عادل رأسه، والتي لاحظها سيد بطرف عينيه، وردّ عليه قائلًا:

– هذه قصة طويلة، ولكن أخبرني عما نحن فيه، عما تشعر به، عن هذا اللعين، عن الشيطان الرجيم، عن الغازي الأثيم، عن الغول، عن الوحش الكاسر، عن عزرائيل!

قال له سيد:

– حنانيك، تمهل فإن لي معه قصة أخرى، في الحقيقة يبدو أنه يعيش معي منذ ثلاثة أيام ولم أشعر بأذاه، ولم يعبث بجسدي، وإن كنت لا أدري هل يتربص وينتظر لحظة ما أم لا، ولكني في النهاية لا أشعر منه بشيء ضار علي اية حال حتى الآن. ولكني أشعر بما القاه في روعي، وبما أبصرني به، وبكتبه التي ألقاها على مكتبتي لأتصفحها.

قال له عادل:

– أنت تبدو لي غامض بعض الشيء، فهل تسمح لي أن أسألك عن طبيعة عملك؟

أجابه سيد:

– نائب في الطب الباطني، وعلى وشك الحصول على درجة الماجستير.

سكت عادل برهة، ثم أردف بعد أن أبدى دهشته:

– ولكني على أية حال أتفهم الموقف، ولن اسالك كيف أصبت! فهذا قد يكون من السهل علي أن أستنبطه، ولكن اكمل ما كنت تريد أن تقوله، وما هي الكتب التي ألقاها على مكتبك، ولكن بالله عليك، أخبرني بما يسهل عليّ فهمه، فإنني ضعيف في علم

النفس والفلسفة، فأنا أمتهن مهنة الحساب، حيث أعمل في أحد البنوك، مهنتي الأموال.

ضحك سيد، وقال له:

- ربما علمني الفيروس قراءة النفوس أو بعض ما تعني فلسفة كما تسميها، ولكنني في واقع الامر، أحدثك بما يجول في خاطري... إن السطر الأول في الصفحة الأولى من كتاب الحياة، التي سطرها الفيروس هي: أن الذي يجعلك هدفًا للسخرية من كل شيء في العالم حتى من ذاتك هو عدم معرفتك لذاتك وفقدك لاحترامها.

صاح عادل:

هي هي... ما أحكم ذلك الفيروس!

***

تطلعات برجوازية

طوى النهار صفحته، وأرخى الليل سدوله، لتأتي ليلة جديدة، تكشف عن أسرارها، وربما تكون حبلى بهموم آن لها أن تنزاح...

كان ذلك ما يمكن أن نطلق عليه، تلك الليلة الحبلى بأشرارها وسمومها... ليلة ليلاء.

بعد تناول العشاء سويًا، ذهب كل من عادل وسيد ليستلقي كل منهما على سريره، ويشربان الشاي المرسل مع الطعام.

بعد أن أنتهى أبو المجد من تجرع كوب الشاي، بدأ يترك سريره ثم يعود إليه، لا يهدأ، كان يبدو من قلقه رغبته في أن يقول شيئًا.

ربما أدرك سيد ذلك لكنه أراد أن يسير الأمر على طبيعته، فهو يؤمن بأن الاقدار هي التي تسير الأحداث، وتضع رتوشها، ولا تجعل لأحد أن يختار، وأن اختارت فهو يعلم يقينًا أن الخير محمول على أجنحتها تطوف به، وتلقيه على مَن تختار. ربما نشأ ذلك اليقين من طبيعة صوفية تربى سيد عليها، ثم تعمقت بدراسته

للطب وبخبرته مع مرضاه، فقد كان يفعل لهم الكثير، لكن كان للأقدار دائمًا أقوال أخرى.

ترك سيد رفيقه في الغرفة على حاله ولم يتكلم معه، فإذا بعادل ينفجر في بكاء شديد ويعتدل على سريره، مخفيًا وجهه بيديه في الاتجاه المقابل لسيد...

وجد سيد أن من واجبه أن يسأل عادل عمّا به لكنه تردد، فبادره عادل بالقول:

- سأخبرك!..

قال عادل ذلك ثم سكت طويلًا، وسيد ينظر إليه، وعندما نظر في عيني رفيقه وجدهما غير مستقرتين، كأنه يبحث عن شيئ في أعماقه يريد أن يعثر عليه، وكأن هناك حوارًا عميقًا يدور بداخله، بأن يختار أن يقول أو لا يقول.

ربما فهم سيد ذلك، فقد كانت لديه بعض الخبرة مع مرضاه الذين يعانون من مخاوف لا يريدون البوح بها، فكان يحثهم ويشجعهم للبوح بما يعتلج في صدورهم من مخاوف.

حاول سيد أن يشجع عادل ويطمئنه، لكنه قرر فقط أن ينصت إليه عندما يرغب في الحديث، ولن يقاطعه إلا إذا أذن له بذلك، وأن ما يدور بينهما سيكون تحت قَسَم أبقراط الطبي، الذي

أقسم عليه عندما بدأ ممارسة مهنته، وأن ما يقوله سيكون سرًا لن يبوح به لأحد.

بدأ عادل يشعر ببعض الراحة، فاسترخى في جلسته، وأخذ يتحدث بمقدمة طويلة عن الصداقة، والحب، والوقوف بجانب الاخرين، وخيانة العِشرَة، و...

أنصت سيد إلى رفيقه وهو مندهش من كلامه المسترسل الذي يدل على أنه مهموم بأمور بعيدة عن هذا الفيروس الذي يغزو جسده، أو يؤثر فيه ولم يجعله يبصر الحقائق عن تلك الألفاظ الرنانة الجوفاء.

فجأة... بدأ عادل ينتحب ويصرخ بشدة..:

- لقد قتلت أبي، أنا الذي قتلته...

ظلّ يعيد الجملة ويتلوى وينتحب، وبعد أن هدأ قليلًا، قال لسيد:

- أخبرتك من قبل أنني أعمل بأحد البنوك الاستثمارية المعروفة، ولكنني مع هذا كنت أنظر إلى نفسي كأنني شخص ثانوي بلا جدوى ولا قيمة، كنت أرى نفس مثل بقايا الشاي هذا...

نظر إلى كوب الشاي بجانبه، وواصل حديثه:

- بعد أن يأخذوا من الشاي عصارته، يقذفون به في الحمام ويبولون عليه!.. وكنت أظن نفسي مثل عود القصب الذي ينتظر دوره للدخول في المفرمة، ثم يخرج فتاتًا وحطامًا، وفي النهاية يقذفون به ليوقدوا به النار.

كنت أجلس على مكتبي وعقلي بين الأرقام والمعادلات وأسماء المشاهير، أما قلبي وعيوني وشهواتي فهي في الفراغ الكبير الممتد أمامي.

لم استسلم لأكون من الطبقة التي يطلق عليها المتوسطة، والتي سلبوها كل شيء، طبقة الصعاليك! التي تدنت حقوقها، أردت الخروج من المستنقع الذي كان يصيبني بالغثيان.

كنت أريد أن أنسل من هذه الطبقة، وأغير جلدي الذي أرهقني، أردت أن أصبغه بلون جديد، او على الأقل أواريه بثياب مزركشة، أضع عليه تلك العلامة المميزة لهم، «البراند» في لغاتنا المعاصرة.

قال عادل ذلك، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مليئة بالسخرية والكراهية، وأضاف:

- أردت الدخول في صفوفهم... لكن لم أكن أملك شيئًا غير الكلمات، غير أحلامي، التي لم تكن تغني ولا تسمن، وتتوارى

خجلًا وراء هذا العالم البنكي الذي يعيش ويموت بين الأرقام. لم أملك في الحقيقة إلا هذا السيف الخشبي لأقاتل كل هذا الجيش من الأساطيل المحملة بالطائرات العابرة للقارات، ولكني توهمت أن أحلامي أقوى من كل شئ، كنت شابًا غرًا، عصفورًا أرفرف بنقائي، أغرد من بعيد.

كانت هي هناك، يجذبني فيها كل شيء، جمالها الساحر، عيونها، ابتسامتها الراقية، لباقتها، مرحها، كل شيء، كل شيء. فهي كالعصفورة، حرة تتحرك بين الغصون، كانت دوامة حبها تصيبني بالدوار الجميل الذي يأخذني إلى أعماق بحورها، لأغوص برأسي، ولأتجول بخيالي في شُعَبِها المرجانية الفاتنة.

بريق عينيها يبدد ظلام وحدتي وينير لي النجوم والقمر. كانت من نفس الطبقة المتوسطة التي أنتمي إليها، لكن طبقة الأنوثة وضعتها في عيون طبقة رؤوس الأموال في درجة أعلى، وقد كنت أتألم من انجذابهم الشديد نحوها، لكن أكثر ما شدني اليها أنها لم تتورط في سلوك يسوئها، فهي تعرف ما تريد، كانت في النهاية ذكية.

ثم أتت اللحظة الفارقة، التي دفعني إليها، أنها كانت -أو ظننت- ذلك، تعاملني برقة شديدة، ولكن للحقيقة- لم ألحظ من تعبيراتها أو من تصرفاتها ما يدل على إعجابها بي، ربما أدرك ذلك الآن.

طلبت من صديقة لها بالبنك أن تجس نبضها في التقدم لخطبتها، لكنها عادت تحمل الصدمة الكبرى لي، أنها رافضة رفضًا قاطعًا، ربما لتغلق عليّ كل أبواب العودة للتوسط أو الحديث في هذا الموضوع مرة أخرى. فشعرت حينها أن كبريائي قد تمزق، وأن خيالاتي كانت تعبث بي، وأنها قد جردتني من آخر سيوفي، من أحلام المراهقة.

لكن لم يمضِ وقت طويل حتى استيقظ حلمي الطبقي من جديد، فبدأت التف إليه من زقاق، أو من طريق آخر.

توقف عادل عن الكلام قليلًا لالتقاط أنفاسه، ثم نظر إلى سيد مليًا وواصل كلامه، قائلًا:

- أدرك الآن، وأنا اتحدث إليك يا صديقي، أنني لم أكن في الحقيقة أبحث عن الحب، بل عن الطبقة، عن الطلاء.

كان سيد مشدوهًا من هذا الكلام، وذهب بصره بعيدًا، كأنه يرى نفسه في مرآة عادل، فأخذ يتأمل شاشة هاتفه المحمول بين

يديه، كأنما يريد أن يروض القلق الذي شعر به، ثم عاد من بعيد ينصت ويومئ برأسه لعادل أن يستمر.

لكن عادل شعر أنه أرهق سيد ببث شجونه وأحزانه، واستسمحه أن يواصلا حديثهما في صباح اليوم التالي.

***

قميص أبو المجد

ذهب الليل بشجونه، وأشرقت الشمس من جديد، واستيقظ عادل ليجد رفيقه سيد كعادته منذ أن رافقه في الغرفة، يحدق في الفراغ من خلف النافذة، فألقى عليه التحية، ثم نظر في هاتفه المحمول، فوجد أن الساعة قد جاوزت العاشرة صباحًا.

بدأ رحلة الصباح المعتادة إلى الحمام ثم عاد سريعًا وصلى الصبح، وبدأ في تناول إفطاره منفردًا، حيث أن سيد قد سبقه إليه.

ذهب عادل حيث يقف صديقه، وبادره بالتحية والإطمئنان عليه بعد ما دار بينهما من حديث مساء أمس، فأخبره عادل أنه لم يهنأ بمثل هذا النوم منذ فترة طويلة جدًا.

وقفا سويًا يحدقان في الفراغ لفترة طويلة، ثم عاد كل منهما إلى سريره، حيث كان عادل يجد نفسه في حاجة ملحة ليكمل ما بدأه بالأمس.

ظهر على عادل الكثير من التماسك مقارنة بما كان عليه بالأمس، فبدا يتكلم في هدوء وبصوت خفيض، مما جعل سيد يقترب منه ويجلس على الكرسي الذي أحضره من إحدى زاويا الغرفة.

- يا صديقي- قالها عادل وفي عينيه الكثير من الود- كانت طعنة القلب هي نقطة التحول نحو المدينة الظالمة والقلوب القاسية. وأنا اخترت هذا الطريق واهمًا أنني سأفرض نفسي فيه وأبني قصوري علي جانبيه. الطعنة جعلت روحي تنزف بلا انقطاع وجففت كل منابع الخير بداخلي، أحسست أن الرقة والحب لا معنى لهما، وأشعلها أيضًا نظرات الشفقة والأسى من المقربين مني، كانت الطعنة قوية، حطمت كبريائي...

قال عادل ذلك وشعاع المعاناة ينفذ من عينيه، مضيفًا:

- جعلني ذلك أقذف بالكلمات الزائفة عن الحب والغرام في سلة القاذورات. كنت حينها أكتوي بالتعب الشديد، والإرهاق المتواصل، والحزن يفتت عظامي، وقلبي ينزف من بين ضلوعي، ولم يكن من سبيل إلا أن أبحث عن عصا أتوكأ عليها، فوجدتها أمامي وبين يدي: عصا المال، عصا الآمر الناهي، صاحب الصولجان.

بدأ شعاع المال الذهبي يلهب عيوني، ويؤرق سكوني، كنت أنظر للأوراق المالية كأنها ملكي، فأنا الذي أحكم بدخولها وخروجها، وأصحابها ما هم الا عبيد عندي يقدمون أوراقهم للإحسان إليهم من أموالهم.

كان ذلك شعورًا مثيرًا في بدايته، خاصة عندما كنت أرى تودد أصحاب الملايين لي، ورجاءهم وإلحاحهم أن أنجز أعمالهم بسرعة. بلا شك كنت متوهمًا، ولكن لم يكن إلا هذا الإحساس، ليعيد لي بعضًا من كبريائي الذي تحطم على جسر الحب.

كنت أداعب حِزَم الأوراق المالية كأنها أطفالي الصغار، كنت أشعر وأنا أضعهم في الخزنة أنهم ينامون في العش الذي أبنيه لهم، ينامون في أحضاني، وكأني كنت أرعاهم ليكونوا لي في النهاية.

أضاف عادل وهو يبتسم في هدوء:

– قد تظنني مجنونًا الآن، ولكن هذه كانت الحقيقة التي ترسخت وتعمقت بداخلي. فقد كنت أشعر بالنهم، أظن الحياة كمائدة الطعام «اوبن بوفيه» قصيرة، وعليها كل الأصناف، وكنت دائمًا الطفل الذي يظن أن صحنه الممتلئ سيجعله كبيرًا وعليه أن يملأه بكل شيء.

أقوم كل مرة بنفس الشيء، ولا اشبع من تكراره، ولا أرحم الآخرين. أقوم بكل ذلك رغم نظرات الاحتقار أحيانًا من الآخرين، حتى من النادل، ولكني كنت قد أعددت نفسي لهذه السخرية والاحتقار.

لاحظ سيد أن عادل يقول هذه الكلمات الأخيرة بصورة متقطعة، ربما من المرارة التي تملأ حلقه. لكن تركه يكمل حديثه:

- حاولت أن أصدق نفسي، أن أدفعها للأمام، أن أنطلق وفقط، لم يكن يعنيني شيء سوى أن ألحق بالقافلة، أركب القطار في أي درجة لا يهم، فالكل سيصل إلى نفس المحطة... كنت علي علم أنها فرصتي، ولم يكن يهمني الهوان... كنت ارتق تمزقي وألملم شقوق نفسي بتلك الابتسامة المخادعة التي أراها تقديرًا لمواهبي ولذاتي، لم أكن أرى الخداع في أي شيء منها، لم أتبين خيوط الشبكة التي تنصب حولي ولا الطعم الذي يقدم لي. ولكنهم أتقنوا صنع الطعم الذي كان بلا لون ولا طعم ولا رائحة ومع ذلك تنجذب إليه، كان فيه قوة سحرية غامضة هائلة لم أكن أدري طبيعتها، ربما قرأوا نفسي، وشبق عيوني أو على ملامحي، وفكوا شفرتها في ذاتي، عرفوا كلمة السر عندي، وبصمتي التي يفتحون بها عقلي، ويسيلون لعابي. كانوا خبراء، وأشهد لهم بذلك، والدليل أنني وقعت.

كنت فريسة سهلة أربكوها ثم أنهكوها في الحيرة، حتى سقطت مع أول رمية لشباكهم، مع أول طُعمٍ في سناراتهم، ربما كان عقلي حينها في أحشائي، في شهواتي وغرائزي، لقد

أجاعوني ووصلوا بنفسي إلى حد الجفاف، ثم أوقعوها وهي في قمة السعادة والانتشاء.

ورغم كل ذلك لا ألومهم، فقد كنت أعرف هدفي، كنت أقرأ عيونهم كما يقرؤون عيوني، أعرف كلمة السِر للنفاذ إليهم، وللوصول أيضًا إلى ما أريد، كنت أعرف أنهم يعرفون أن أي شيء له ثمن، وأن الثمن هو المال والمال فقط. وكنت أيضًا على يقين في نفسي، أنني بالمال سأصل إلى كل شيء، كل شيء. وكنت أتساءل: إذا كان الغرام لم يعرف طريقي إلا في الأحلام، فإن المال ربما يعرفه في الواقع وها هو في الطريق إلي.

شَعَرَ سيد ببعض الملل فبدأ يعبث في هاتفه الجوال، أو ربما كان متشوقًا أن يصل إلى الخلاصة سريعًا، ولاحظ عادل ذلك فبدأ- بلا وعي- يدخل فيما يثير سيد ويعيده للإنصات إليه. فاستأنف كلامه:

كان المال يمر أمامي وينادي عليّ في كل شيء، البِدَل، الأحذية، القمصان، البارفانات العتيقة، العربة الفارهة المنتظرة بالخارج والتي تظن أنها لا تستخدم إلا مرة واحدة من تغييرها باستمرار.

أردت أن اتحرر ولا أكون كالساعة التي تعمل باستمرار، أردت أن أنزل من فوق الحائط، أن اخرج من المكتب، أخرج إلى الأرض الواسعة، والقصور الفارهة.

كانت كل الفرص سانحة أمامي، بدأت أرى بكل وضوح المكان الذي أحشر فيه نفسي بينهم، والذي ربما حجبته غشاوة الحب. أحسست أنه لا بد للربيع والحب والمراهقة، وتلك الترهات الصبيانية تحت الأشجار والظلال المخدرة أن تولي، ولا بد لصيفي أن يأتي، أن يلهب أفكاري ويخلع رداء الوهن والبكاء.

كان لهيب صيفي شديدًا، ولم يمضِ وقت طويل حتى وجدت مكيف الهواء البارد، -من ذلك الرجل المهم- كانت بابتسامة منه- وهو يلتفت للوراء- ليهنئني بجودة عملي، والاستقامة، والإتقان وحسن المقابلة، وتسهيل الأمور، وكم يسعده دائما أن يرى شبابا مثلي لديهم كل هذه المميزات.

كانت تحيط به السكرتيرات الفاتنات، كنت لا أستطيع أن أرفع عيني وانظر إليهن، كنت أخفض عيوني الملتهبة بالسحر بجفون الخجل الزائف والكاذب، كنت أعرف أنهم يعرفون ذلك ولكني أحببت لعب دور الأعمى، ذلك الدور الذي ملك عليّ شغاف

قلبي. أحببت أن أدخل القصر بدور الأعمى. كان ذلك الدور يروق لي حتى ادمنته أيضًا...

ضحك عادل ضحكة صافية وقال ساخرًا:

- ربما يكون الإدمان هو الطريق الذي يبحث عني، وقد أحببت أن أكون أعمى، أبصر فقط بعيون شهواتي فقط-كانت هي الشعاع الذي يضيء دربي، عيون نهمة لا تشبع، كالسياط التي تلسع جوادها ليهرول ويجري في السباق لتحصد الفوز. لم أكن فارسًا، ولم أملك الزمام، فقط كنت ألعب دور الجواد الأعمى. اتقنت دور الأعمى!.. كنت ماهرًا فيه لدرجة أنني استحق الفوز بجائزة الأوسكار!

ارتسمت على شفتي عادل ضحكة ساخرة وبدا الألم في عينيه، وهو يستطرد في حديثه:

- كانت كلمات ذلك الرجل المهم تطرب اذني، ولكن كانت عيوني في الفراغ، في العربة الرابضة في الخارج، والجميلة التي تنتظر فيها. كان الرجل ذكيًا وفطن إلى ذلك، فما لبث أن انصرف ثم أرسل إليّ مديرة أعماله فعزفت نفس الألحان، واستمر يرسل كل حين نفس الموسيقى مع اختلا

الموسيقى ولم يبق إلا أن أرقص. كان يعلم أن الألحان تسحب

القلوب، وتلهب النفوس، وتؤجج الغرائز، وتثير الشهوات، فأرسل لي دعوة مع أحد مندوبيه بلحن جديد وبموسيقى حالمة، إنه دعوة بحضور حفل افتتاح احد فروعه، فلم أتردد وحضرت، وعدت بعد أن اخذت جرعة من مخدر الإبهار.

كانت الجرعة هذه المرة عالية ويمكن أن تقتل أي انسان إلا أنا، فلقد تعودت وأدمنت، ولكن ظل الاشتياق يزداد، وبدأت الدعوات تتوالى حتى بلغت جرعات الانبهار مداها، كانت الغواية لا تقاوم، فأحسست أنني محاصر في حلبته، منقاد إلى حظيرته، أصبحت في النهاية خروفا من خرافه.

قررت أن أسلم نفسي لرجل الأعمال وأعطيه زمامي ليقودني في طريق اخترته. وكان المطلوب مني أن أسد أذني وأغلق فمي مقابل تطلعاتي. كان الثمن هو المعلومات، أن يعرف ما يدور في البنك، أن يكون أول من تصل إليه الاخبار، أن يعرف حتى النوايا، كان ذلك فقط في البداية مقابل العطايا. ثم تطور الأمر، وأظن أنك تستطيع أن تخمن بسهولة ما ستؤل إليه الأمور، كانت القروض الميسرة والرضا بالضمانات الواهية.

لم أخالف القواعد الواهية والشروط المتهالكة التي يضعها البنك، ولكن كنت المحامي الذي يعرف الثغرات لينفذ منها. ولم يكن يعنيني

أي شيء، فقط كنت أريد أن أجعل من الفتات أكوامًا أصعد عليها، ومن الحصا تلالًا أعتليها، كان كل ذلك كل ما يدور في عقلي، لم أكن أريد لحياتي أن تدور في فلكه ولكن تكون لي ثروة معقولة.

انطلقت من فم عادل ضحكات ساخرة تفاعل معها سيد بضحكة مماثلة، ثم واصل حديثه:

- أردت أن أتحرر، أن تكون لي مملكتي الخاصة، حظيرتي الخاصة، حتى خرافي الخاصة، وأن أكون الذئب الذي يخيفها وتهابه. ظننت أنني أمتلك من قراراتي ما فيه الكفاية، فقررت أن أبحر بسفينتي بقوة، أقود الشراع وسط الأعاصير، لا أتوسل إلى الأمواج ولا الحيتان، بل تكون الحيتان على مرمى من سطوتي لا تخيفني بل أجعلها تتوسل إليّ كي أطعمها. أردت أن امتلك زمام نفسي، أن أروض الوحوش والذئاب وأرمي لها الفتات... كنت أريد أن ينتصر الغِل داخلي. فمشكلتي أن الخير لم يكن له نورًا في طريقي ينفذ إلي ، فقد أوصدت بابه بمزلاج النهم والغرور. ولكن القدر أراد وخطط للقاء، أراد أن يقابل الفيروس الميت أخيه الميت فيحيي الصداقة بينهما.

قال عادل ذلك وهو يبتسم ابتسامة يعتصرها الكثير من الألم. ثم أكمل حديثه:

- دعاني الرجل المهم إلى مشروعي الكبير الذي يُعدّني له، وكان ذلك مع وفد أجنبي لشركة متعددة الجنسيات، كان الحضور كبيرًا مهيبًا، وكانت القُبلات حارة، والتصافح والعناق سيد الموقف، كنت متألقًا أسبح أو ربما غارق في نشوة خيالي، وشعرت أن المال والمجد وربما الغرام عرف طريقه إليّ، وسأكون أبو المجد الحقيقي!

بدت على ملامح عادل ابتسامة أخرى تحمل من السخرية ما فيها، وقال:

- اعتقدت إنني سأحظى باسمي الذي سرقه الزمن من أهلي- أبو المجد.

شعر سيد أنه قد طال بهما الحديث، وربما قد يفوتهما موعد تناول الغداء، فتواعدا علي استئناف حديثهما في وقت لاحق مساء.

***

القميص المسموم!..

تناول سيد وعادل طعام العشاء كاليوم السابق، بعدها جلسا متقاربين على الكرسيين داخل الغرفة في مواجهة بعضهما يتناولان الشاي.

ومع أول رشفة من الشاي، دعاه سيد بلطف أن يستأنف حديثه، دون أن يعلِّق على ما سبق أن حكاه له...

بدأ عادل حديثه وهو يتأمل سقف الغرفة، ثم يجول ببصره في كل زاوية من زواياها، كأنه يراها لأول مرة، مما استرعي انتباه سيد لكن لم يعلق على ذلك.

نظر عادل إلى سيد وبدأ حديثه:

– كما قلت لك بالأمس، لقد نمى وعيي، وتطورت طموحاتي وكبر كل شيئ بداخلي، في الحقيقة نمى كل ما هو شر، وكان يكبر على مدار الوقت، ووقود النهم يزيده اشتعالًا، ولا أخفيك أنني انغمست في الشراب، وأخذني طوفان الرذيلة وحملني مع أمواجه ومع دواماته ثم ألقى بي تحت رحمة الصخور القاسية راكعًا مستجيرًا تحت فيروس الألم.

ولقد توقف كلامي بالأمس عند تلك الحفلة المشؤومة التي كانت لتتويجي ولكن شعرت بأن شيئًا ما ينقصني، كنت أشتاق إلى الابتسامة والضحكة العذبة المخلصة والكلمات الصادقة.

كان والدي هو ما تبقى لي من أسرتي الصغيرة في مصر، كان يسكن في شقة متواضعة في حي المنيل وسط القاهرة، كنت أزوره بين فترة وأخرى، لكن زياراتي له قلَّت بعدما انشغلت في عملي، ولكنه كان يتصل بي بشكل دائم بالتليفون للاطمئنان على أحوالي، أخبرني أنه يتفهم ظروفي، واستمرَّ في تدبير شئون حياته بعد وفاة والدتي رحمها الله من حوالي عشرة أعوام، رغم معاناته من السكر وارتفاع الضغط كان يعتني بصحته ولم يطلب مني المساعدة، وكان حريصًا على التواصل ببعض أصدقائه القدامى بعد إحالته للمعاش، حيث كان يعمل وكيل وزارة في المالية ومعاشه يكفيه.

بعد تلك الليلة المشؤومة، ذهبت إليه وعلى وجهي نشوة الانتصار على الزمان، ذهبت لأخبره بكل خلية من خلايا جسدي أن المجد سيعود وأن الزمن سينتصر لنا.

لم يفهم أبي شيئًا مما أقول، ولكنه على أية حال كان مسرورًا للغاية، كنت أظن نفسي أحمل قميص يوسف الذي سيرد بصر يعقوب، ولم أتخيل أن ذلك القميص هو الذي سيغمض عينيه إلى الأبد وينطفئ معه نور قلبي، كان الفيروس اللعين هو ذلك القميص الذي ارتديته والتاج الذي توجت به في تلك الحفلة المشؤومة.

فقد أصيب ابي بالفيروس ومات، ودفن معه قميصه الذي لم يدفن بعد..

قال عادل تلك الكلمات ولم يستطع أن يغلق عينيه بعد أن امتلأت بالدموع.

كان ينزف ألمًا، وصدره يغلي كالمرجل وتهب منه أدخنة الأسى وكلمات العذاب. ثم واصل كلامه بصعوبة:

- أنا الذي قتلت والدي بقميصي المسموم. وإذا كان القتل هو نهاية هذا الطريق، فان الطريق بدا بالقتل ايضا، أن تقتل طريق الخير بداخلك، تقتل الحب، فتقتل الآخرين، ثم تقتل نفسك في النهاية. ربما لا أستطيع أن أحصي عدد من قتلتهم، ولكني موقن أنني قتلت الكثير، وكان من بينهم أبي. فماذا عساي أن أفعل، أنا لست خائفًا بل حزينًا.

ليس الخوف هو ما يزعجني، ولا الموت يؤلمني، إنه الخزي الذي يعتصر كياني، والمرارة التي تملأ حلقي، لم أكن أعرف إلا مرارة الحلق، الآن أشعر بالمرارة من دموعي التي تتساقط على فمي، أشعر بالمرارة في كل أعضائي.

لن يقتلني الفيروس، أعرف ذلك جيدًا لأن ميتٌ لا يقتل ميتًا، ولكن ربما سيجعلني أعيش. يا صديقي هل تصدقني؟!

كان الذهول يعتري سيد ولم يدهشه كثيرًا، فكم قرأ وسمع عن هؤلاء الناس. فقال لرفيقه عادل:

- الجديد في حكايتك يا صديقي، أن يكون علاج الموتى بالفيروس!

أومأ عادل براسه موافقًا لما قاله سيد، وعلَّق:

- كلامك هو عين الحقيقة، حقًا الفيروس هو العلاج، فعندما مرضت شعرت أنني كنت ذلك الشئ واللا شيء، لاشئ في شيء، والآن فهمت اللعبة، كنت ألقي التهمة على الظروف البائسة والحياة الصعبة ولم أنظر في العيون، لم تكن لي مهارة ولا فراسة في قراءة العقول. جاء الفيروس ليجعلني أستظل بأشجار جديدة،

أتنفس حياة جديدة، أحتمي تحت ظلال عقلي، لا أختفي في دهاليز وكهوف بطني.

لقد فك الفيروس شفرة عيني وعقلي، وجعلني أبصر كالميكروسكوب والتلسكوب أرى القريب والبعيد.

***

حواراتي مع الرجل المهم

في صباح اليوم الخامس أو السادس من إقامتي بالحجر الصحي، لا ادري بالتحديد، فلم يكن لحساب الأيام في هذا المكان معنى، بعد أن مرَّ اليوم الثالث بأمان، فقد عرفت أن أعراض الفيروس تظهر في غضون ثلاثة أيام، مما أزاح عني بعض القلق والخوف من تأثير الفيروس، وبث الطمأنينة، وبعث السكينة إلى نفسي.

جاء في ذلك الصباح أحد الأطباء، يرتدي وسائل وقاية شبيهة بملابس روّاد الفضاء،- وطرق باب الغرفة وتكلم معي في أمر نزيل مهم مصاب بالفيروس، وطلب مني أن أرافقه في وحدته، مضيفًا أنه يستدعي الفريق الطبي طوال الوقت لقياس حرارته وضغطه وسكره، وأنهم بين المطرقة والسندان، بين الرفض فالعقاب، او القبول فالغرق في دوامته، في ظل قلة عدد العاملين بالقسم. استأذنني الطبيب أن أجالسه فترة من النهار، وأفرد لي قائمة عريضة لمزايا الجلوس معه.

كنت في الحقيقة أعرف ما يدور في عقل الطبيب الذي يمثل الإدارة، وقد قرأتها عند دخولي إلى الحجر الصحي منذ اليوم

الأول. وهي أن بعضهم لم يأت إلى هذا المكان تلبية لنداء الوجب كما يدعون، ولكن الحقيقة هو الخوف علي كبريائهم أن يتحطم على صخرة الواقع الاجتماعي، أو ينالهم جزاء الهروب من الحرب الطاحنة أمام الفيروس.

أدركت ذلك، وأعرف على الجانب الآخر أن الأمر لن يكلفني شيء، بل ربما تكون فرصة لن تتكرر، وأيضًا لأخفف عن عادل- رفيق الغرفة- ما قد يقرأه في عيوني بطريق الخطأ عن نفسه، والحقيقة أنني لم أره قاتلًا على الإطلاق، وإن كنت أراه أحمقًا!

في الحقيقة، كانت تتوق نفسي لرؤية الرجل المهم، والجلوس معه، والإنصات إليه، ليس من باب التشفي أو الكراهية، فلم أكن أعرف الكراهية أصلًا، حتي أن البقية التي حملتها منها من تخلي أصدقائي وخطيبتي عني، قد محاها حديث عادل معي.

وعلى الجانب الاخر، منعني كبريائي من أن استغل مهنتي لمجاراة الظروف، أن امسك يده واعد نبضه! لا أحب هذا الدور، دور العبد المتعلم الخادم. ولكن في النهاية وافقت، أردت أن أراه وأسمعه عن قرب بلا رتوش، بلا مكياج.

وكنت قد سمعت عن قسوة هؤلاء الرجال، وأنهم إذا ما كرهوا فلا يكتفون بمعاقبة من يكرهون أو من يتبعونهم، بل إذا لزم الأمر

قد يمزقون العالم بأسره!.. فالكراهية نار لا تميز، وتقتل أحيانًا. حيوان مفترس إذا خرج من مكمنه استحال وحشًا ضاريًا لا يعرف صاحبه، وربما يأكله إن لم يجد ما يأكله.

كنت أعرف هذا الصنف من القساة من الطراز القديم، القسوة واضحة في هيئته ومعالمه، وكنت على دراية أيضًا بالصنف الآخر الخطير من الطراز الجديد، تلك الثعابين التي تقتل من بعيد ببث سمومها!

بعد أن هيأت الإدارة كل شيء، ذهبت إلى حجرته، والتي كانت في الدور الثاني.

غرفة كبيرة لها حمام منفصل على اليمين عند الدخول من الباب، ثم ممر يؤدي إلى غرفة فسيحة، بها سرير طبي كبير، على جانبيه مساحة لوضع الأجهزة الطبية والمحاليل، وأمام السرير «أنتريه» كبير، وهناك حاجز يؤدي إلى غرفة أخرى بها سريرين ودولاب، أُعدَّت ربما لمن يقيم معه.

وفي جانب الغرفة مائدة موضوع عليها ملف مسجل فيه أنواع ومواعيد الأدوية التي يتناولها، حيث كان يعاني من داء السكري، والضغط المرتفع، والنقرس.

فتح باب الغرفة بنفسه لاستقبالي، تعلو هامته أنفة عظيمة، كأن الهيبة تنبعث من أنفاسه، كان يتنفس الكبرياء، وتظهر على قسمات وجهه الصرامة والقسوة في الخطوط التي يبدو أن الزمان قد اختاره ليرسمها على جبينه.

دعاني للجلوس، كنت أشعر وأنا اجلس أمامه، أنني أتلظى في نار أحاديثه، التي أحيانًا تنطلق كالقذائف التي قد تتفجر بين جوانحي، أو تنهمر كالطوفان الجارف، وأحيانًا كالحجارة الثقيلة، كنت أشعر بالاختناق.

كان يقذف مع كل كلمة من كلماته، كمية من المكسرات الشهية التي أمامه على المنضدة في فمه، وكنت في الحقيقة أشفق على الفستق والكاجو واللوز عندما أراها بين فكيه، وأتخيل ضحاياه الذين تطحنهم وتفرمهم إهاناته وكبره وتسلطه كما يطحنها، أو يمتصهم كما يمتص حبات الزبيب.

كان كلامه ثقيلًا، مملًا، لا يدور إلا حول قوته ومكانته وعظمته، وحبه لبلده، وشرفه وأمانته، وأنه ضحى بكل نفيس وغالٍ من أجلها، وأنه كان أصلب من الحديد وأرسخ من الجبال.

لكلماته مخالب وأنياب، يجسد الكلمات، كل جسمه يتحرك مع كلامه.

ما زالت ترتسم عليه علامات الانتصار، كأنه يتباهى بأنه ما زال يختبئ منه ذلك الفيروس الوغد، وأنه لو رأه سيطارده حتى النهاية، ولن يفلت منه وسيأخذه سجينًا، وسيضع الأغلال في يديه وقدميه، كالمجرمين الذين كان مصيرهم في النهاية أن يركعوا ويتذللوا أمامه.

كانت لديه نظرة متعالية كأنها تأتي من نيزك أو من برق خاطف مميت. كانت النظرة فيها من التحقير ما لا يتحمله أحد.

يردد دائمًا نفس الشئ كل يوم، كائن يسبح في ملكوت الرتابة، حتى صرت أشعر أن الرتابة كائن حي، قوي السطوة. كان لا يصاحبه الرتابة فقط بل يشتهيها.

كنت أراه كالساعة المعلقة على الحائط، لا تتحرك إلا في نطاق أربعة وعشرون ساعة وتعود وتكرر دورتها، وكأن لم يكن هناك أيام تمر، أو سنوات تنتهي.

وأخيرًا، فاجأني شعور بأن بقائي معه يفقدني الاحترام على الأقل لذاتي. ولكن لم اجد للأمر حيلة ولا مخرج.

ولم يدم وقت طويل، حتي بدا الرجل يسعل وترتفع درجة حرارته، كان الأمر يبدو بسيطًا في أعراضه، ولكنه أصبح كالفأر

المذعور الذي وقع في المصيدة وأطبقت على ذيله، فأصابه بالهلع الشديد وتوقف فجأة عن الكلام، ربما كان ذلك لأول مرة في حياته.

انقلب الرجل إلى طفل مسكين ضعيف يتوسل، يسأل طول الوقت، لا يجيب لا يتكلم، يسمع فقط، يريد أن يطمئن طوال الوقت، ولم تعد تغريه المكسرات التي نجت من بين فكيه.

بدأ يستمع إلي، ويطلب مني بإلحاح أن أطمئنه، أصبح يشعر بوجودي، يسألني عن الجنِّي، قال لي إنه يريد أن يعرف الحقيقة، والحقيقة فقط، أضحى يفتش عن الأدلة الحقيقية، عن التفاصيل.

صار وكانه هبط إلى الأرض، وأصبح ينتمي إلى طبقة الإنسانية.

أيها الجني ماذا فعلت؟! هل أسقيته شرابًا سحريًا أم أطعمته طعام الإنسانية؟!

ثم تطور الأمر فجأة، ارتفعت حرارته بشدة، بدأ يهذي ويتكلم عن أشياء تتحرك على السقف والحائط، وكأنه يبصر أشياء لا وجود لها.

فقد الإحساس بالزمان والمكان والأشخاص، كان يطوف في الغرفة، يتكلم، يتحرك كثيرًا كأنما يبحث عن شيء فقده، ربما عن

ذاكرته داخل الغرفة، كأن جني سلبها منه وأخفاها في مكان ما، ولكنه كان يعود إلى طبيعته بعد أن تهدأ حرارته.

استمر يهذي على مدار يومين، حتى انخفضت حرارته قليلًا، ولكن بدا للقائمين على علاجه أن الأمر ربما يتطور، فأمروا بنقله إلى العناية المركزة في نفس الدور، تحسبًا لغدر غير متوقع من الفيروس اللعين. وعاد بعد يومين إلى غرفته، بعد أن تحسنت حالته كثيرًا.

ذهبت إليه هذه المرة وأنا أشعر تجاهه بالكثير من الشفقة، وعندما دخلت عليه كان مستلقيًا على سريره، ورحب بي بشدة.

كان نصف نائم، موجود وغير موجود، يبصر ولا يرى، يتكلم كأن لا أحد أمامه، لقد خطفه الذهول، وطار به القلق إلى عالم الخوف، كان يسبح فقط في أعماق نفسه، مغمض العينين مبعثر النفس، كان وجوده عبئًا عليه.

لم يتوقع أن يحاصره الفيروس داخل قلعته، وأن يطيح به من فوق عرشه، ويجعله يطيع أوامره.

لقد تحطم كبرياءه على اعتاب ذلك الفيروس، كان يتحدث كملكٍ فقد عرشه، وسقط تاجه، أو خطفه الغراب الأسود من فوق رأسه ليدفنه في أرض الأموات.

قام من على سريره مستندًا على يديَّ حتى وصل إلى المقعد المريح في الغرفة وأجلسني أمامه.

بدأت تتغير ملامحه، وتعود ثنايا جبينه إلى مكانها، وتهدأ جفونه وتستريح على عيونه، وتنتظم أنفاسه، ثم مدَّ رجليه في جلسة مريحة هادئة.

صار ينظر بعيون مختلفة أذهلتني وجعلتني أتساءل:

- كيف لزئير هذا الأسد أن يهدأ بهذه الصورة؟!

لم أجهد نفسي في البحث عن جواب، أخذت فقط أتأمل الموقف، وأنتظر ما سيسفر عنه ذلك.

نظر الرجل المهم في عينيّ، وربما لاحظ دهشتي، فقال يخاطبني:

- يا دكتور سيد- كانت أول مرة أسمع اسمي ولقبي- لا تندهش ولا تنزعج ولا تخدعك الصورة التي كنت عليها، أو تخيفك المكانة وما كنت أتكلم فيه.

عاد الذهول إليّ مرة أخرى، فاعتدلت للأمام على الكرسي، واضعًا ذراعي على مسند الكرسي مقبلًا عليه، وأبدي له الرغبة في أن يستمر، وها أنا منصت له هذه المرة بطريقة أخرى.

في الحقيقة، ربما في هذه اللحظة بدأت مشاعر الرهبة والخوف والغثيان تخفت، وبدأت تهبُّ رياح الإنسانية، وأطلقت روح المودة جناحيها ورفرفت على المكان.

خاطبني مرة أخرى:

– يا دكتور سيد، قد يبدو من كلامي السابق أن الفيروس لم يزعجني! ولكن الحقيقة غير ذلك، وربما ما قلته هو ما تعودت أن أقوله دائمًا، وما زال صداه يتردد عبر نفسي، وربما لم أستطع أن أوقفه ولكن الفيروس أدمى قلبي، وأدار لي عجلة الزمن، ورسم لي الأماكن بطريقة أخرى، وجعلني أرى ملامح الناس بطريقة مختلفة، وإن كنت الآن لا أستطيع معالجة كثيرا من الجراح، أو أبعث أموات لأسترحمهم، أو أعيد ترتيب الأماكن من جديد، ولكن على الأقل تغير الموقف الآن مع هذا الفيروس، فدعني أفضض لك.

بدأت أستأنس لحديثه، لما شعرت به من الصدق، وأيضًا كنت أحب أن أجالس هؤلاء، ربما لأني أرى فيهم صورة أبي الذي غيبه الموت منذ حمسة أعوام. قال الرجل المهم:

– أنت بلا شك تعرف إسمي ومهنتي، وقد أخبروك، وقد يكون وجهي ما زال مألوفًا لك. أنني لم أدرك نفسي ولم أقرأها حتى بعد تقاعدي، ولم يتعمق إدراكي لها إلا منذ خمسة أيام، بعد أن أصيب أحد أبنائي بالفيروس، ونقل العدوى لي.

أومأت برأسي، حيث تذكرت عادل في هذه اللحظة، ثم استأنف:

- كنت شابًا من أسرة متوسطة، وكان أبي من هذه الطبقة وكذلك أمي، وقد حظي الاثنان بحظ وافر من التعليم، وكنا خمسة من الأخوة والأخـوات، ثلاثة أولاد كلهم في مراكز مرموقة بحكم كلمة مرموقة تلك الأيام... وأخواتي الإثنتين أيضا متزوجتين من شخصيات مرموقة معروفة لكن لن أذكر لك أسماءهم، المهم كنت الثالث بينهم، وكنت في الحقيقة مختلفًا، أحب أن يكون لي موضع قدم كبيرة، وأن يكون لي سلطة عظيمة، وكان أبي في الحقيقة ينتبه لذلك، حيث كان من رجال التربية والتعليم، ويعرف هذه النزعة من خلال رؤيته لمعاملتي لأقرأني وأخواني، ولكنني لم أعبأ بنصائحه، ووضعت لنفسي هذا الهدف.

لم يكن لي من سبيل الا أن اتعرف في الجامعة علي احدي الفتيات من الاسر المرموقة وأتزوجها ، وهذا ماحدث بالفعل، وقد جذبها إلي وسامتي...

قال ذلك وهو يبتسم ابتسامة تنم على نشوته بنفسه. ثم أضاف:

- لم تكن زوجتي جميلة بالقدر المتعارف عليه، ولكن كانت مقبولة، كان حبي هو السلطة والتشبث بها، وتزوجنا بعد ما تخرجنا، وأنجبنا طفلنا الأول الذي تسبب في إصابتي بالفيروس، حتي أطمأن على دوام العلاقة، وسرعان ما وضعت قدمي على أول طريق للسلطة، وحينها لم تقع عيناي إلا على قمتها، ولم يكن يعنيني أي شئ غير ذلك.

كنت فقط أقرا درجات السلم إلى السلطة، وكيف أضع قدمي عليها، وكيف أصعد عليها، كنت أدرس كل درجة بعناية فائقة، أطرح ما يزاحمني عليها أو يحاول دفعي من الخلف أرضًا، أمد يدي فقط لمن يأخذها للأمام.

لكن ذلك كان على حساب أسرتي، حيث بدأت الفجوة تزيد بيني وبين زوجتي كلما صعدت درجة من درجات سلم السلطة، ولكنها لم تتذمر أو تتمرد، وربما كنت أعرف أنها تتفهم الموقف.

كنت في الحقيقة لا أرى إلا نفسي، كنت أظن أن حصوني راسخة في الأرض، وأن دبابتي انتصرت في الحرب، وأن طلقاتي صائبة، ولكن الآن أرى أن دبابتي لم تطأ إلا الإنسانية، وأن طلقاتي كانت في صدور المتعبين المجهدين، وأن حصوني كانت في الهواء.

أما كيف حدث ذلك، فسأحكي لك بعضًا ممن أتذكرهم وأضعهم أمامي الآن، واسترحمهم، كنت الآمر الناهي في دائرتي، أعطي الأوامر وكل من حولي يهللون ويعزفون لي أناشيد الرحمة والتفاني.

كان النفاق يا دكتور سيد، خالصًا، من النوع الفاخر. ولكني لم أعط لهم فرصة، كنت أعلم بأن شلة المنافقين لها نفوس خفية ولغة خفية تتواصل بها، فهي كالطيور الجارحة ذات المناقير المقوسة، تنتظر الانقضاض على فريستها.

صرت حريصًا على أن تتلاقى كل الخيوط عندي وتكتمل الحلقات، كنت أبغض الأفواه المفتوحة والألسن التي لا فائدة منها، وعشقت نغمات الأجراس، فكان لكل منهم جرس في عنقه يعرف نغمته، وأحتفظ بنسخة مماثلة على مكتبي. المؤلم أنني كنت أعرف ذلك، ولكني أعرف أيضًا أنه درجة للوصول إلى أعلى.

ولن أنسي صورة تلك الأم التي رفضوا أن يدخلوها إلى مكتبي، وظلت نائمة في الشارع مع أطفالها الخمسة تسترحم الحارس أن يدخلها عليّ، كنت أسمعها بأذني أثناء خروجي، وأخرى تصرخ، ابني سيموت، وتبكي بكاءً حارًا، وغير ذلك الكثير من شكاوى هؤلاء الناس.

يا دكتور سيد أشعر الآن أنني قاتل ومجرم.

قال ذلك وأخذ تذرف عيونه بالدموع. ثم أضاف:

– لم أتعظ حتى بعد أن ماتت إحدى حفيداتي، وبعد ما تعرضت لإصابة شديدة في حادث سيارة أقعدني سنة كاملة أتأوه في منزلي، كل ذلك لم يثنيني، أعطاني ربي فرصًا كثيرة ولم اتعظ...

استمرت الدموع تنهمر من عينيه، وهو يضيف:

– كان المال الشيئ الثاني أو ربما الثالث في حياتي، المال فقط من أجل المقامرة والمغامرة. كان همي الأول أن أقامر، أستحوذ، وأمتلك نظرات العيون الجميلة الشبقة، لتكون تحت حظوتي، أن أغرس فيها سيوفي وأقتلعها أحيانًا. وكان أكثر ما يثير نشوتي أن أبصر النسور والصقور وهي تهوي أمامي، أصطاد الثعالب والتماسيح، وأرى نهم الكلاب وهي تتعلق بعيونها وتنتظر العظمة التي ألقيها لها. وليس هناك مانع من أن تاتي الطواويس لتهش بأجنحتها الزاهية فوق رأسي، وللقرود أن تتراقص أمامي.

كانت هوايتي اللعب. لم أكن أدري لماذا أفعل ذلك، هل لشعوري بالاحتقار لنفسي، لكراهيتي لها، للاختباء من نظرات

زوجتي، لم يكن يهمني في الحقيقة غير ذلك. ربما كنت أشعر بالنشوة بعد ذلك، ولكن لم أشعر بالارتواء أبدًا، كنت نهمًا في احتقاري لذاتي.

نظر الرجل المهم إليّ نظرت رجاء وهو يكمل حديثه:

- سامحني على الإسهاب في الحديث عن سلوكي، دعني أعود بك إلى حياتي الشخصية مرة أخرى. فرغم أنني كنت صاحب هيلمان وصولجان، فلا تندهش أنني كنت أكره البيت، وكلما علوت درجة كان الدين لزوجتي يزداد والفاتورة تتفاقم، فأصبح بيتي عبئًا عليّ، فكنت أهرب من البيت للعمل لأني أعرف أنه كلما زاد ديني زاد احتقار زوجتي لي، كانت الشيء الوحيد الذي ينغص عليّ حياتي مع أنها لم تكن تبدي ذلك، كان شعور الاحتقار يلازمني، وتمنيت في قرارة نفسي أن تذهب بعيدًا ولكن لم أستطع فعل شيء. حتي أتت اللحظة الأولى عندما ماتت زوجتي، فظننت أنه سينتهي كل ذلك واسترجع بعضًا من نفسي، ولكن لم يكن لي هذا البعض أيضًا، فأنا لا أتذكره على الإطلاق، قالها وعينيه ممتلئة بالدموع، التي يحاول أن يكتمها، ظللت على نهجي.

لم أذكر لك أنني كنت مثل أبي، لي خمسة أبناء، ثلاثة أولاد ذهب منهم اثنان إلى أمريكا وتزوجت ابنتان بعيدًا عني في أطراف القاهرة في المدن الجديدة، يبدو أنهم هربوا جميعًا مني ولم يبق غير إبني هذا، والذي ربما بقي معي لأنه يشبهني.

يا دكتور سيد، أن عجلة الزمان تدور لتعيد نفسها، ابني على شاكلتي تمامًا، ما زال على عتبات السلم الذي صعدت منه، ولكنه أصيب بالفيروس ونقله لي، وهو الأن في مكان بعيد عني لا يريد أن يكون معي، ربما يشعر بالذنب لأنه نقله لي ولكني أظن بحكم معرفتي لنفسي، التي هي نفسه، أنه ليس هذا السبب بل ربما سبب آخر.

أتى هذا الفيروس ليفتح كل صفحات حياتي، أقراها وأتأملها من بعيد ومن قريب، وإن كنت لا أستطيع أن أتأملها وحدي، ولا أدري لماذا أقول لك ذلك، ربما لأنك طبيب أو ربما تكون آخر من التقي بهم، لأدري...

قال ذلك ثم وقف وأدار ظهره، وأخذ يتجول في الغرفة ببطء، وأخيرًا جلس على الكرسي واضعًا يديه على المسندين، زافرًا:

– آه آه آه من الأيام!

كنت أتأمل الموقف، ولا أستطيع أن أعلق، وإن كانت عيناي تشعر بالأسى له وتود أن تقول شيئًا، ولكني انتظرت منه أن يطلب مني شيئًا، ولكن الرجل استأذنني أن اعد كوبين من الشاي بالنعناع الذي كانت تحب أن تضعه له زوجته.

ناولته كوب الشاي، ثم استأنف حديثه:

- يا دكتور سيد، أنني الأن لا أنعم بالراحة والهدوء، فما زالت تطوف بذاكرتي تلك المواقف والأشياء، كل ما يؤلمني ذاكرتي التي تحفر وتنهش في هدوئي، أتمنى أن أصاب بالزهايمر!

- أين الفيروس من كل هذا؟! تساءل سيد.

***

رجل مهم يبحث عن الحقيقة

دخل الحجر الصحي شخصية مهمة أخرى... حدث ذلك أثناء الفترة التي كان فيها الرجل المهم في العناية المركزة.

كانت الأضواء لا تزال مسلطة على هذه الشخصية المهمة، وإن فقدت بعض بريقها بحكم سنها الذي لا يعرفه أحد بالتحديد، وقد يكون لروح العصر أيضًا! وبروز أجيال جديدة من كل صنف ولون، خطفت الكثير من وهج الأضواء.

وحيث أنني أصبحت عند إدارة الحجر الصحي، متخصص المهمات الكبرى، كما كانوا يتندرون عليّ، وبحكم كوني «النزيل رقم 1»، ولم يسبب الفيروس لي أي مضاعفات، وأيضًا بحكم التخصص، ولكن يبدو السبب هو النتائج التي أبهرتُهم بها بمؤانسة الرجل المهم!، وفي النهاية، ليس هذا وقت سرد الأسباب.

استسمحوني بكل لطف كالمعتاد، أن أقوم بمؤانسته وإدخال الطمأنينة على قلب هذه الشخصية ذائعة الصيت سابقًا، التي تحب أن ترى بالعين- فلا يداويها الكلام- شخصًا مصابًا بالفيروس منذ فترة ولم يصبه أذى.

رحبت أيضًا- ربما بحكم العادة- كما كانت فرصة كبيرة لي، لم أتبينها إلا فيما بعد.

كانت غرفة النزيل المهم الثاني في الطابق الثاني أيضًا، في غرفة مماثلة ومجاورة لغرفة الرجل المهم الأول!

ذهبت اليه ومعي تلك الصورة الخيالية عنه، صورة لم أكن أتصورها كيف تكون وكيف تتجسد في لحم ودم؟!

كنت أعرف أن مائدته مكتظة بصولاته وجولاته على كل الأصعدة، فهو يفتخر بالموسوعية المكانية والزمانية والإنسانية، وعلاقاته مع الآخرين، وكأنه نهر عظيم يمدُّ روافده لتصل إلى كل الوديان، كأن الموسوعية تجسدت فيه وتوحد معها.

كان يرى نفسه بالإضافة إلى كونه كتاب موسوعي، أنه خبير استراتيجي، وأنه لم يصل إلى تلك المرتبة، ولم يستحقها إلا عن جدارة، وهم يتهافتون عليه، حيث يقدم الخلاصة ويستخلص العبر، ويضئ السُبُل.

ولكن كان يؤرقني أن سلة عقلي قد لا تستوعب أو لا تستطيع أن تحتوي كل ذلك. كنت متعطشًا لمن ينير دربي، وأستلهم منه طريقًا لحياتي، بعد أن خذلني حبي وغاب أصدقائي، وربما نسوني أو تناسوني!

ذهبت لكي آخذ الكلمات الحاسمة والخطوط العريضة، فقد كنت أشعر أنني كالشجرة التي تساقطت أوراقها، وأن خريفها بدأ بعد أن أجهض ربيعي وأن صيفي أصبح في طي النسيان.

كنت آمل أن أعود بشيء يطمئنني أن ربيعي لم يجهض، وأن صيفي لم يمت، وأن ما حدث نوبة استثنائية، وحالة عابرة، قد تحدث في الربيع والصيف وستزول.

عنما طرقت الباب وفتح لي، أدهشني منظره الذي لم أكن أتوقعه بأي حال من الأحوال، رجلًا ضامرًا كالطفل الصغير، كان فقط رأسه كبيرة، أصلع بشعر أبيض خفيف خلف الرأس، لا يرتدي الباروكة السوداء التي تشعرك أنك لست علي كوكب الأرض الذي يشيخ.

رحب بي، ودعاني للجلوس في المقعد ذو المسندين، وجلس أمامي متكومًا على المقعد ذو المسندين، يلبس طاقم الأسنان. كانت بيجامته توحي بمدى الثراء والوجاهة.

وربما آلمني أنه لم يكن بالصورة التي تعودت أن أراه عليها عندما كان يملأ صفحات الجرائد وشاشات الفضائيات.

بدأت تخفت في داخلي أضواء الإندهاش وتنحسر رويدًا رويدًا.

كان يبدو مجهدًا متعبًا، وقطرات الحزن تتساقط من عينيه، وتظهر علامات الخوف والتوتر أحيانًا على يديه المرتعشتين، التي يحاول طوال الوقت أن يضعهما علي مسندي المقعد. فقد بدا الضعف والاستسلام جليا على محياه.

رحب بي بصوت لا يخلو من الألم والحزن، وأيضا من الاحتياج!

غاصَ في مقعده قليلًا، ثم أعتدل وأسند يديه على المقعد، وبدأ الترحيب بي وتقديم الشاي، وكيف أن الأطباء لهم الكلمة العليا في هذه الأيام وووو... وكأنه يقدمني في أحد برامجه الممتدة على شاشات الفضائيات.

اتضح لي أن الفيروس لم يجعله يتخلى بعد عن مقدماته التلفزيونية الرتيبة.

وربما لاحظ أنه قد أخذني التواضع، وأظهرت خجلًا من تلك الكلمات التي لم أتعود عليها قط. كان يشعر أن في الأمر شيءا

كان الأستاذ فهمي يحظى بدرجة كبيرة من الذكاء الاجتماعي، حاول أن يبدد تلك المخاوف، فبدأ يحدثني عن رحلته الأولى في الحياة، وأنه كان مثلي خجولًا، ومن طبقة اجتماعية فقيرة، ربما تكون أقل مني كثيرًا، لكنه لم ييأس، وها هو وصل إلى ما وصل

إليه من مكانة، يقال عنها مرموقة... قالها ويبدو الألم من عينيه وحركة شفتيه.

بدأ ارتباكي يتبدد، وشعر الأستاذ فهمي بذلك، وأنه استطاع ان يكون مثل الديك يعيد الدجاجة المذعورة الخجلة لحظيرتها، حتى مع كل ما كان يعتصره من ألم، ربما قام بذلك بحكم التعود وإتقان هذه العملية، ولكنه استمر، وحاول أن يصيح كالديك بعد أن بسط نفوذه، ولكن لم يستطع الديك أن يصيح، فبدأ يلتقط أنفاسه ويبحث عن الكلمات التي يريد أن يبوح بها لي.

أراد أن يعرف الحقيقة،- تذكرت على الفور الرجل المهم الأول، وعادل رفيق غرفتي، وقصة وقضية البحث عن الحقيقة! وربما تكون هذه هي المرة الأولى التي يبحث فيها الأستاذ فهمي عن الحقيقة.

كان قبل ذلك يبحث عن الكذب، والألوان، وعن الرتوش، ولكن هذه المرة لا، لذلك بدت الصعوبة تنتابه، وبدا يُتهته، وتظهر الحيرة في عينيه، وبدأت حتى يديه المسندتين على المقعد ترتعش.

لاحظت ذلك القلق والتوتر، فأردت أن احمل حقيبة القلق من على كتفيه كما تعودت من قبل، وأن أبدأ أنا بالسؤال، وألتقط الخيط- ربما فعلت ذلك عن دون قصد- فبدات أساله الأسئلة

التقليدية التي كنت متعودًا عليها مع مرضاي، وأبتعد بطبيعة الحال عن السؤال عن العمر!

بدأت بسؤاله عن الحالة الاجتماعية والأمراض العضوية التي يعاني منها، والأدوية التي يتعاطاها.

بدأ الهدوء يتسرب إلى الأستاذ فهمي، وبدأت أشعر بأنني أمسك أول الخيط، والذي كان في حقيقة الأمر الخوف من الفيروس اللعين ومدى فرص النجاة منه. كان ذلك كل ما يريده الأستاذ فهمي بالظبط، أن يعرف هل سينجو أم لا، وأن أقول الحقيقة، لا كما تعود.

أخذ يتكلم بمرارة تخرج من ثنايا كلامه ويشعر بها في حلقه، ويسأل:

– هل ستضيع أكثر من أربعين عامًا قضيتها لأبني هرمي الأكبر، ولترتفع مسلتي المنسوخ عليها مجدي؟ هل سيتهاوى كل ذلك في لحظة أمام زلزال هذا اللعين، والذي يحدد متى دوري في قائمة الانتظار؟..

– واستطرد، أصبحت أشعر كانني أقل من كلب المدينة الذي يفر من الزلزال ليختبئ في مكان ما، ولكن المؤلم أن الزلزال في داخلنا ولا نملك الوقوف أمامه، أو القيام بأي شيء حياله، قنبلة

ننتظر أن تنفجر ولا نعرف أين ولا متى... حَكَمَ علينا الفيروس بالانتظار فقط، حاصرنا كالدجاج، كالخراف في الحظيرة حتى الديكة والتيوس فينا لم تعد تصيح إو تتباهي بقرونها. وإذا مِتُّ فلن يلتفت احد، وربما أوارى تراب لا يعرف مكانه أحد، ولا يحب أن يعرف. مأساة! كأننا نتكلم عن أساطير.

ثم تابع ايضا:

أريدك أن تصدقني القول، أريد الحقيقة، هل الفيروس سيكون مثل فقاعات الصابون وبقليل من الماء سيزول أم مثل الثورات؟! تاتي ثم يكون لها توابع وتنتهي.

قالها وهو يبتسم ابتسامة لها دلالة كبرى، ربما لم يرد أن يفصح عنها، -لأنه لا يعرف الي ماذا أنتمي- مع الثورة ام عليها.

ابتسمت أيضًا ابتسامة مماثلة كرد فعل، وتجاوزنا الابتسامات بسرعة، فأنا أعلم أن هناك بعض الناس لا تستطيع العيش مع أفكار معينة بينما آخرون يستطيعون أن يعيشوا بها، ربما مستلهما ذلك من مرضاي، فبعضهم قد يستطيع أن يعيش مع أمراضه والأخر يعجز!

***

الباحث عن ضحكة حقيقية!

في اليوم التالي، طرقت باب غرفته تقريبًا في نفس الموعد، لنكمل حوارنا الذي بدأناه بالأمس، والذي انتهي بكثير من الود.

رحب بي كالمعتاد وهو في حالة أفضل مما كان عليه بالأمس، ثم بدأ يتكلم وأنا استمع إليه بشغف، لأنه كان يتقن الحوار.

بادر الأستاذ فهمي بالحديث:

- تسلقت شجرة المجد بقدمي العاريتين، وكنت أمسك فروعها بأسناني لألتقط ثمارها بكلتا يديّ، كان النهم يملأ جنبات نفسي، كنت كالقرد أحيانًا لا يمكن الإمساك بي...

قالها وهو يضحك ضحكة لا تخلو من السخرية، وأضاف:

- لم أكن أبالي بتساقط الأوراق او الزهور، كنت أتطلع إلى الثمرة والصعود للأعلى لأبني عشي في مكان آمن، بعيدًا عن الزواحف التي تتثاءب أسفل الشجرة .

ثم تراجع علي كرسيه وارتسمت على وجهه علامات الحزن والأسي، وقال:

- لم أدرِ أنه سيسقط فوقي ذلك النيزك، الفيروس اللعين، وزلزاله سيسقط عشي المتوهم. ولكن في نفس الوقت أضاء ذلك الفيروس جنبات نفسي وأظهر حقيقة الطلاء والقبح في تلك الخرافات والأوهام والأنغام المسكرة المميتة، التي ادمنت بها وانغمست فيها.

كنت محبوسًا ومحاصرًا في شرنقة هذه الخرافات الحريرية، وعندما مزقها الفيروس أصبحت فراشة ضعيفة مهيضة الجناح كما ترى، لا تقوى على الطيران وإن كانت لا زالت تحمل اللون الجميل الزائف.

كنت أغوص في مقعدي وهو يتكلم عن الفراشات الزائفة، فقد انبرت من ذاكرتي وطرقت باب قلبي صورة خطيبتي- فراشتي الزائفة، وارتسمت على وجهي ابتسامة من الأسى، ربما لاحظها الأستاذ فهمي فبادلني بمثلها، فلم يكن يدري ما يدور بداخلي.

وربما دعته تلك الابتسامة ليتكلم عن الضحك، فاستأنف الحديث عن الضحك وقال:

- لم أعرف الضحك الصادق او ربما لم تعطِ لي الفرصة التي أكون صادقًا فيها لأضحك تلك الضحكة الصادقة.

أتعرف أن الضحك الصادق لم أصادفه في طريقي أبدًا، كانت كلها ابتسامات وقهقهات بلهاء، والضحكات لا تخرج أبدًا من العيون، وإنما من الجيوب الأنفية أو قل الجيوب المالية، كانت كلها تنتمي إلى حافظة النقود تأتي منها وتذهب إليها.

لا أتذكر آخر مرة ضحكت فيها، ولن تصدق كنت أحيانًا اذهب إلى محطة المترو فقط لأنظر إلى الناس كيف يضحكون ضحكة حقيقية، وكأني كنت أبحث عنها وأذكر نفسي بها، وأنها ما زالت على قيد الحياة!

دعني أحدثك عن حياتي الخاصة التي كانت كلها ممزقة كما تعرف وربما قراته أو سمعته عني، عن مغامراتي وعدد زوجاتي، وأصدقك القول لم أجد الضحكة الحقيقية التي كنت أبحث عنها، ربما تعدد مرات زواجي كان بحثًا عن الضحكة الحقيقية التي وراءها قلب نقي صافٍ.

الضحكة الحقيقية ضياء الأرواح، هيييهه!

ضحك ضحكة مختلطة بالألم والسخرية والكراهية كأنها ترتدي ثياب الأسى، ثم استأنف:

- ماذا أقول؟.. لا أريد أن اجتر أحزاني، ولكن يا دكتور سيد إن وجدت الضحكة الحقيقية فعضّ عليها بالنواجذ- كما يقولون-

فهي كنز لا يقدَّر بثمن، بمال أو جاه أو سلطان، هذه ربما تكون نصيحتي لك مقابل الكثير الذي قدمته لي.

صرت مشدوهًا ومشدودًا لحديثه، ولكن أيضًا لم أكن أحب موقف الشيخ الذي يقدم المواعظ والنصائح، فأنا أعلم أن الأستاذ فهمي لا يريدها، يريد فقط أن يفهمه أحد، أن يصدقه أحد، كما في لقبه- صادق، الذي نسيه أو وضعه خلفه في العربة الأخيرة من قطار حياته، وها هو يصل إلى المحطة النهائية، ثم ها هو يبحث عنه، ربما سيجده، ولكن كيف سيكون الحال التي هو عليها عندما يجده وقد خانه الزمن.

***

عبد المولى صالح

رأت إدارة المستشفى أنه من الأفضل للنزلاء الذين مرَّ عليهم أسبوع أو أكثر، أن يتريَّضوا في الساحة حول مبنى المستشفى، حتى تمتلئ صدورهم بالهواء النقي، فقد يبعث ذلك في نفوسهم الكثير من الأمل وهم يقتربون من الشفاء التام، ويشعرون أنهم على أعتاب الخروج إلى الحياة.

كان ذلك، بلا شك، يبعث السرور في نفوس النزلاء، فبدأوا يخرجون في أوقات الصباح مع كل إشراقة شمس يوم جديد.

لم تكن المساحة حول المستشفى مهيأة لذلك، حيث كان هناك القليل من الإخضرار، فاعتمد كل نزيل على مقاعد جلبها من حجرته للخارج.

نزل سيد بصحبة عادل، وجلسا بالقرب من حائط المبني في مواجهة السور، حيث الأفق الممتد، كذلك فعل باقي النزلاء، وكان منهم أربعة من كبار السن، كان سيد يعرف ثلاثة منهم.

لاحظ سيد رجلًا يلبس جلبابًا بنِّي اللون، لم يتعرف عليه من قبل، كان شيخًا مسنًا يقترب من السبعين عامًا، تميل سحنته

إلى السمرة قليلًا، ذا وجه محدَّب، تكسوه لحية بيضاء، وعينان صغيرتان دامعتان. مما جعل سيد يعتقد أنه من أهل الصلاح والورع، فشعر أن بينهما شيء ما، فاقترب منه.

كان الرجل صامتًا، يحدِّق في السماء. ولما ألقى سيد السلام عليه ، أوما برأسه وتمتم بشفتيه، فوجد صعوبة في التواصل معه، ولكنه لم ييأس، فهو على خبرة في استنطاق هؤلاء.

دار في ذهن سيد لبرهة، أن الرجل ربما مكبَّل بالهموم، أو أن الخوف ألجم لسانه، ثم استفاق ونظر إلى وجهه، فرأى لا تبدو على سحنته أي من علامات الخوف والحزن، بل الصفاء والهدوء يغمر قسمات وجهه الذي يدعو للارتياح، وهذا لا يتأتى إلا من نفس جاهدت ذاتها من الداخل حتى فاض على هيئتها الخارجية.

تشجَّع سيد، محاولا أن يستنطقه، فسلَّم عليه مرة أخرى، فابتسم الرجل ابتسامة زادت سيد شوقًا كبيرًا.

كانت ابتسامة كالسهم الذي اخترق قلبه، وصعد إلى روحه، فبادله سيد بابتسامة ثم تبعها بسؤال:

- من أين أنت يا مولانا؟!

سكت الرجل طويلًا، ولم يجب إلا بعد أن وجد تصميمًا يشع من عيني سيد، ورأي عينيه لا تتزحزح من مكانهما، فأجابه:

- من الإسكندرية...

اندهش سيد، ثم أردف:

- ولكن وجهك وسحنتك يا مولانا لا تدل على أنك من أهل الإسكندرية.

قال الرجل:

- أصولي من النوبة، وجئت الإسكندرية بحثًا عنه!

ثم سكت، ولم يكمل، فشعر سيد أنه لا يريد أن يتكلم في هذا الذي يبحث عنه في الإسكندرية، فسأله:

- وكيف حالك الآن مع هذا الملعون؟

أجابه الرجل:

- لا تسبه، ربما ليس ملعونًا، الملعون إبليس وفقط، ابليس الذي يعيش تحت جلودنا، بين أضلعنا- ثم تابع: وكيف عرفت أنه ملعون، لماذا تطلق ألفاظًا كهذه على من لا تعرف؟ ماذا فعل بك؟

ذهل سيد ولم يجادل، أحسّ أنه لا يريد أن يخسره، وانبرت فكرة أنسلت إلى عقله، هذا الرجل ربما يعيش في عالم آخر، عالم لا أدري ما هو، ربما أنا في محراب عالم قدسي، هذا الرجل ربما يحمل الكثير.

ظلّ سيد صامتًا ولكن كانت تتحرك شفتيه، ولم يبصرها الشيخ فقد كان يحدق في السماء، كانه لا يشعر بوجود أحد بجانبه، فساله سيد:

- ما أسمك يا مولاي؟

قال الرجل:

- قُل عبد المولى، ولا تقل مولاي، اسمي هو عبد المولى، وإن وجدت صعوبة قل يا عم عبد المولي، ذلك أفضل لي.

زاد هذا الرد سيد فضولًا وتشوقًا للغوص في اعماقه، كان يحب هذا النوع من الغموض، الذي قد يفضي إلى حقاق كبرى ربما تغير مجرى حياته.

لم يرد أن يزعج الرجل أكثر من ذلك، فبدا يحدق مثله في السماء.

كانت المرة الأولى التي ينظر فيها إلى السماء بهذه الطريقة، هل أصابته عدوى من هذا الرجل، كانت في السماء سحابة مثقلة كأنها حبلى، تحجب ضياء الشمس، تمر ببطئ شديد، وترتسم وتتشكل بأشكال كان يتصورها في ذهنه.

شعر كأن هناك عالم آخر يراه على شاشة السماء، عالم بكل شخوصه وألوانه، عالم تدب فيه حياة، عالم له لغة في أصوات رعده، وله بصيرة من شعاع برقه، عالم آخر، ربما أطهر، تحت قبة السماء.

بدأ سيد يغوص في هذا العالم، مع تلك السحابة الأم الحبلى والمرضعة في نفس الوقت، كان يريد أن يسألها إلى أين تذهب؟ يراها الأم التي تبحث من أعلى عن أولادها في أخاديد الأرض، تسوق لهم حليبها الذي لا ينقطع حتى يكبروا، وقد يتحول حليبها دموعًا تنزف على أرض تركوها صحراء، وقد تنقلب طوفانًا كاسحًا، يجرف من يغضبهم، كان يراها في كل ذلك أمًا حنونًا.

ثم أضحى يحدث نفسه، هل عم عبد المولي يشعر بما أشعر به، وكأنه يرى تمتمات من فم عم عبد المولى، تدل على أنه يرى ما يرى، ويشعر بما يشعر.

وفجأة خرجت من فم عم عبد المولى كلمة لم يكن يدري كيف خرجت، قال عم عبد المولي:

- هل ترى ما أرى!

جاءه الرد من سيد سريعًا:

- نعم...

شعر سيد بقشعريرة تسري في بدنه، ونور قد أضاء روحه، ونشوة قد ملأت قلبه، فابتسم بعد أن تتهلل وجهه.

حان موعد رجوعهما إلى الغرف، فودعا بعضهما بابتسامة رقيقة حانية كأنها تعد بلقاء جديد.

دخل سيد غرفته ولم ينتبه لوجود عادل الذي سبقه إليها، حيث ما زال ينبض قلبه من السِحر الذي يسري في دمه. فاستلقى على سريره ولم تذهب عينيه في النوم، كان يريد أن تنتعش ذاكرته بتلك الثروة الهائلة، ليكون لها مكانًا في قلبه وروحه.

***

الطريق إلى السماء

كان القدر يهيء سيد لميلاد ثالث بعد الميلاد الفيروسي الثاني، وها هو ينتظر الساعة التاسعة- بداية وقت التريّض- ليروي ظمأه.

وجد الشيخ في طريقه، فاصطحبه إلى نفس المكان الذي تنعما فيه بالأمس.

افتتح سيد كلامه، وناداه:

- يا مولاي...

نظر إليه عبد المولي نظرة عتاب، فأدرك سيد ما وقع فيه، وبدا عليه قليل من الارتباك، فالتقط الشيخ منه خيط الكلام، وقال له:

- يابني، هذا أول الخطر وبداية السقوط، ناديني باسمي، ففي اسمي غناء عن كل عناء، ناديني عبد المولي.

أومأ سيد برأسه مستجيبًا لكلامه، ثم أردف، وفي صوته نبرة حزينة:

- يا عبد المولى، إن كنت تكلمني عن السقوط، فإن كل يوم يتساقط أـمامي ما كنت أحسبه من الجبال الرواسي، وكل لحظة يأفل نجم كنت اهتدي به، وتموت شجرة كنت استظل بظلها، لم

يعد يا شيخي في فنائي إلا وحوش كاسرة وذئاب عاوية، لم يعد يصل إلى أذني إلا نباح الكلاب وعواء الذئاب وفحيح الثعابين، لم يعد لصهيل الخيول وجود، ولا لعيون الغزالان مكان.

قال سيد ذلك وهو يبتسم وبادله الشيخ بابتسامة ربما ليقطع طرف هذا الحديث القاسي. ثم تابع سيد:

- يا شيخي، السقوط اصبح كل شيء، فاين حبل النجاة، اين أول درجات سلم الصعود، أين نقطة البدء؟

قال سيد ذلك ثم صمت. فتبسم الشيخ ابتسامة حنونة شعر بها سيد وكأنها قد غاصت في سويداء قلبه، فصمت ينتظر أن يتكلم شيخه. الذي قال:

- يا أيها السيد- قالها وهو يبتسم- إنه الطريق الذي يدلك يابني وليس التعلم. الطريق لا يقاس بالعمر، قد تكون لحظة هي كل الطريق، فلا تنتظر أن يطول بك العمر، أو تزداد خبراتك، ليس هذا هو الطريق. الطريق لحظة تضيء روحك، تتجلي فيها أنواره فتأخذك آلاف الأميال ومئات السنين. الطريق هو للأعلى وليس على الأرض، هو للسماء التي ليست فوق رأسك بل للسماء التي في قلبك. ربما تكون قد فهمت الطريق، ولكنك لم تذق بعد، فإن

ذقت عرفت ولن تعود كما كنت أبدًا. يابني، ستكون السيد هناك، وهناك فقط.

لم يتحرك سيد من مكانه ولم ينطق بكلمة... تجمد او كأن صاعقة الجمته أو ربما يستمع إلى ملاكٍ أذهله، فصمت وأخذ يحدق في السماء وربما لم يحتمل أكثر من ذلك.

وبعد صمت جميل، تكلَّم الشيخ وهو يمسك بيدي سيد، وقال:

- يا بني... إن اردت أن تسلك الطريق فلا تسألنِ، هذا هو أول الطريق. وقد يكون هذا هو الامر الوحيد.

أصيب سيد بالذهول، وشعر بنفسه كأنها تسقط في هوة سحيقة ليس لها قرار، وربما حدثته نفسه، كيف لا أسألك؟

شعر الشيخ بحاله، فبادله بابتسامة تحمل بين أجنحتها الحب والحنان والاحتواء والدفء، كانت في الحقيقة هائلة. فشعر سيد بعدها بسكينة غريبة، ثم غاصا في صمت عميق.

قطع الشيخ الصمت، وقال وهو ينظر برفق إلى كل شيء حوله:

- يا بني... لا اريد أن أكون المعلم الذي يُعلِّم ولا يَتعلَّم، أريدك أن تكون بصحبته وحده، في معيته وحده، تسأله وحده وسترى الجواب في قلبك وروحك، قبل أن يصل إلى عقلك.

يا بني... عندما يكون هو وحده، الطريق والنهاية والنهاية والطريق، سيكون كل طريقك نهاية، وكل نهاية طريق، سيكون طريقك هو عين نهايتك.

نظر الشيخ أمامه في الفراغ الممتد إلى السماء، وواصل حديثه:

- لتكن يا بني الشجرة والعصفور، والبحر حين يثور، والينبوع حين يفور، والموج حين ينحني أمام الصخور، والصخرة حين يعلوها الموج ويمتطيها العصفور. يا بني قد تغرق لتنجو.

يا بني... أنت الحصاة والجبل، أنت الجوف والامتلاء. لا تكن شيئًا حتى تكون كل شيء. ليكن فناؤك هو عين الحضور وليكن حضورك فناء. ليكن ما تريد هو عين ما تعطي، ليكن حرمانك عطاء وليكن العطاء حرمان. ليكن كل علو سقوط وكل سقوط علو. ليكن ما لا تقول هو كل ما تقول لتستوي كل الأشياء في روحك.

كان الشيخ ينسج عباراته بعد أن يغيب طويلًا، ويغوص في رحاب الفضاء الممتد إلى ما لا نهاية.

شعر سيد أن هناك بحرًا واسعًا وعميقًا يفصله عن تلك المعاني، حيث كان يجد صعوبة في أن يلتقط الكلمات، فضلًا عن أن يمسك بالمعاني. فأدرك أن عليه التعلم حتى يصل إلى تلك الأرض أو الجنة ليفوز بتلك الكنوز.

ربما أرهقه أنه سيسلك طريقًا آخر للتعلم لم يعهدها من قبل، وها هي تبدو شاقة منذ البداية، ولكنه شعر أن شيئًا ما يدفعه في طريقها، وربما أيضًا فهم الشيخ ذلك.

أنتهى وقت التريض، وازداد سيد عطشًا، ولم يجد بدًا من أن يأخذ بيد الشيخ إلى باب الحجر، لينصرف كل منهما إلى غرفته مع وداعه بقبلة على رأسه.

***

تجليات الشيخ

لم يستطع سيد النوم في تلك الليلة، حيث ذهب طوال ليله يغوص في كل شيء، حتى وصل به الارتباك والحيرة مداه، ولم ينهض من سريره إلا على صوت أذان فجر اليوم التالي، الذي أرهف سمعه.

ورغم أنه لم ينم في تلك الليلة فلم يشعر بالإرهاق حتى قابل الشيخ كالمعتاد.

كان سيد يملك قدرًا كبيرًا من الذكاء، بقدر ما يملك من الطهر والنقاء، فقد أدرك أن حمل الأمس كان ثقيلًا، وأنه وإن كان ثمينًا فربما يقعده إلى الأرض بدل أن يرفعه إلى السماء، فأراد أن يأخذ ما يقوي على حمله.

أراد أن يحمل الشيخ ليرشده، بأن يثيره إثارة خفيفة لا تحمل فيها أسئلة. فبدا ينظر حوله، فوجد عصفورًا يقف على السور كأنه يرقب الجالسين، فلفت نظر الشيخ إليه.

التفت الشيخ إلى العصفور الذي كان يقف من بعيد على السور، ولا يقترب لالتقاط بعض بقايا الطعام التي أمامهم. قال الشيخ:

– أنظر إلى هذا العصفور الذي تراه على السور، أو على فرع الشجرة، كأنه على أطراف الحياة يترقب من بعيد، لا يلتقط ما يبذرونه أمامه، يخاف أن يكون ما يلقونه أمامه شِراكًا وفقط. يري العصفور نفسه ضعيفًا، لكنه في الحقيقة يملك قوة الطيران نعمة الهروب عاليًا حيث بعض الأمان، ويملك نعمة التخفي عن العيون والاختباء خلف الفروع والأوراق. وقد يعرف العصفور المكر الذي طالما خبره في نفوس البشر، والسعادة التي تتبدي علي وجههم عندما يقع في شباكهم. يعرف أيضًا كيف يصطادون العصافير الصغيرة والأسماك الساذجة ويحبسونها في أقفاصها يتلهون بها.

ثم تمتم الشيخ:

– يا بني كن كالعصفور فوق الشجرة يكتفي بالنظر من بعيد.

وصلت الرسالة إلى سيد كأول دروس الحياة، وهي ألا يكون العصفور، الهش، الغر، الساذج، الذي يقع في شباك الفتات الذي يبذرونه أمامه، والعبث الذي ينزلق فيه الآخرون، ويكتفي بالنظر من بعيد للآخرين، يلقي عليهم أنشودة الوداع، ثم يطير بحريته يرفرف بجناحيه مع الأحرار.

لم يكتفِ بالدرس الأول فانتقل إلى الدرس الثاني الذي أراد أن يكون من تجلياته هو!

ترك سيدُ الشيخَ في ملكوته، ربما شعر أنه برما أرهقه، وبدا ينظر إلى السور.

كان السور يمثل له على الـدوام، ألمًا وإزعاجًا واختناقًا، وسأل نفسه: أليس السور الذي أراد أن يبنيه عادل- رفيق الغرفة- بالأموال، أراد أن يحجب بسور الأموال ألم الحب الذي حطم كبرياءه، أراد أن يخفي وراءه شيئًا عظيمًا وهو الحب، كان سورًا عاليًا من الظلام ومن الكراهية، للذات وللأخرين، والسور الذي شيده الرجل المهم، ولم يستطع أن يهرب منه، وما زال مقيدًا ومحبوسًا في رحابه، مكتويًا بناره حتى آخر حياته. والسور المتهالك الزائف، الذي بناه الرجل المثقف، فهمي صادق، من الكذب والشهرة الزائفة والذي أنهدم فوق رأسه.

لأول مرة يري سيد أن هذا السور الذي أمامه رسم له حياة جديدة، رآه سورًا للحرية، حرية لعقله وقلبه وروحه لم يكن ليحظى بها إلا من خلال العيش تحت ظلاله، ذلك السور الذي أحاطه، وهو ينصهر في بوتقة الحياة بكل معانيها مع هؤلاء النزلاء، ألم يتحرر داخل هذا السور.

أصبح يرى أن الاسوار ليست سواء، وأن الأسوار في مدينة العقل قد ترسم الخطوط نحو دروب الحياة، حتى تصل بالإنسان إلى الأبواب التي يفتحها ليخرج إلى الرحاب الواسعة.

اصبح يرى أن المدينة بلا أسوار هي في الحقيقة مدينة بلا أحرار.

كان يعجب من هذه الفكرة الغريبة، ولكنها أنعشت ذهنه في أن يرى الأشياء بصورة مختلفة.

فجأة، سمع سيد صوتًا ينادي عليه من بعيد فالتفت إليه، فإذا هو الرجل المهم، فذهب إليه ورحب به، ودعاه أن يجلس معهما، ولكنه اعتذر متعللًا بأنه يريد الجلوس بعيدًا في مكان أشار إليه تحت السور.

كان سيد والشيخ يجلسان كالمعتاد في الجهة المقابلة للسور، وعندما نظر سيد إلى الرجل المهم أمامه، تذكر تلك الأيام التي كان فيها برفقته، وكيف كان دوي الحزن يصم الأذان.

دار بذهن سيد أن يثير الشيخ ليكلمه عن الحزن، فأشار للشيخ أن ينظر إلى النزلاء الجالسين على مقاعدهم، ثم قال:

لقد دارت الأيام سريعًا، وصار من النزلاء القاضي والمدرس والعامل والساعي والدكتور، جمعهم الفيروس جميعًا على مائدته،

وصهرهم في بوتقته، الكل ينصت إليه وعبر شاشته، كلهم يدورون حول كعبته عرايا إلا من الخوف، لا يلتحفون إلا بمخاوفهم السوداء، يدعون بخالص قلوبهم نفس الدعاء في ساحته، لا يختصمون ولا يتجادلون، الكل منكفئ، يتلو ويقرأ كتاب الحياة المفروض عليهم بالليل والنهار، الكل يقلب صفحاته يأخذ منه ما يرسم به حياته، الكل في محرابه.

ثم أضاف:

- إن الحزن افتك من الفيروس على هذه النفوس، وألمه اشد.

تبسَّم الشيخ وقال له:

- يا بني لا تجعل الحزن ألمًا بل إن كل الأمل في الحزن.

أندهش سيد، وغاصت ذاكرته تفتح صفحات عادل، وفهمي صادق، والرجل المهم، كان ألم الحزن لا يخفي على أحد، كيف يكون الحزن أملًا، لم يفهم، وظل يحاول أن يتلمس خيوطه ولكن لم يستطع.

ودعا الشيخ يستطرد في الكلام فقال:

- الحياة مسرح كبير للأحزان، ومن لم يحزن فهو على الهامش، أو كومبارس- كما في لغة المسرح- لا وزن له، قد يدمي الحزن القلب، ويثقل النفس، ولكنه أيضًا يثقل من وزن الحياة.

إن الحزن الذي نتعثر في أثوابه، ونسقط على بابه، وعلى عتباته، ويدوسنا بأقدامه، ويكون حبلا نشنق به أنفسنا ليس هو حزن الحياة، ولا ينتسب إليها، بل حزن الموت. بينما حزن الحياة هو المصنع الذي تنسج فيه أثوابًا جديدة لحياة جديدة، لمولود جديد مختلف، خالٍ من التشوهات. حزن الحياة يأخذنا إلى عالم الأحياء، لا إلى عالم الموتى كما نظن. حزن الحياة، لا بد أن نتجرعه، كما نرضع ألبان أمهاتنا، لتقوى عظامنا، وتشتد سواعدنا، وتصقل جلودنا، وتنمو عقولنا، وتقوى ذاكرتنا، نأخذه نورًا لبصائرنا، لا ظلامًا يكبل خطواتنا.

نظر سيد مرة أخرى إلى النزلاء، وقال للشيخ:

- إذا كان في حزن الحياة كل الأمل، فربما يكون في مرض الجسد أمل أيضًا- ثم سكت، أراد أن يسمع من الشيخ.

تكلم الشيخ ولم يكن ينظر إليه بل إلى الأفق الممتد أمامه الذي لا نهاية له، وقال:

- إن أجسادنا هي الأغلال التي تكبل الأرواح وتسوقها أحيانًا إلى الرزيلة وتمنعها من أن تتحرر. يا بني مرض الأجساد يحرر الأرواح.

أعاد سيد على نفسه المقولة مرة أخرى: مرض الأجساد يحرر الأرواح، ثم تذكر الفيروس وكيف حرره، وربما يحرر عادل، والرجل المهم وفهمي صادق، فهو على الأقل ألان قلوبهم التي كانت أقسى من الحجارة.

انتهى وقت التريض وكان عليهما أن يذهبا إلى غرفتيها أملًا في لقاء. وكان سيد على موعد بمعرفة نتيجة التحليل الذي أجروه له قبل يومين لمعرفة خلوه من الفيروس.

***

الخروج والرحيل

أخبروه بنتيجة العينة بعد الظهر، كما وعدوه، وأنه شفي تماما والحمد لله، وعليه أن يهيئ نفسه للخروج، وشكروه بابتسامه جميلة، ترتسم علي وجههم، لما قدمه لهم، وعلي أن يلتقوا جميعا في ظروف افضل.

لم يبدِ أي علامة من علامات الفرح بل كان يظهر عليه الألم.

كان يؤلم سيد في الحقيقة فراقه مولاه، فنام ينتظر الصباح حتي يودعه في المكان الذي تعودا الجلوس والحديث فيه.

اتي الليل يفرد جناحيه عليه، مظلما متثاقلا، يكتم علي أنفاسه، ثم اتي الصبح لقلبه بليل اخر .

خرج في الموعد المعتاد، ابرق سيد مولاه عبد المولي-كما كان يحب أن يسميه في قرارة نفسه- من بعيد.

وما أن رأه حتي احتضنه وأخذ يجهش بالبكاء والشيخ يمسح بيديه علي رأسه كالطفل الصغير حتي هدأ.

قال الشيخ لقد أسعدني خبر خروجك يابني، وان كان يؤلمني فراقك أيضا، فعاد سيد مرة اخري للبكاء وقال له لا تمنع عني

البكاء يا مولاي، دع دموعي تغسل قلبي ونفسي، دعها تغوص في اعماقي تطفئ خطاياي.

تركه الشيخ حتي هدأ من تلقاء نفسه، وهو ينظر إلى الشيخ ولم يخفض له جفن.

ثم اردف الشيخ وقال له: يابني أنت في ربيعك الأن، وصيفك لم يأتي بعد، وسيأتي شتاؤك وستمطر سماؤك وستنبت وتزهر وتثمر، وعندما يأتي خريفك وتسقط اوراقك، فستظل واقفا ولن تموت، وستحمل الرياح بذورك ، وتنثرها هناك لتنبت في مكان اخر .

ثم أخرج من جيبه وريقات، قد أدعها له، وقال له هذه وريقات، لا تفتحها الا وقت الرحيل الكبير، لم يفهم سيد ما هو الرحيل الكبير.

أعطاه الشيخ الكنز! والذي ربما قد يقلل من لوعة الفراق.

كان الكنز-كما كان يسميه بعد ذلك- كلمات أعدها لها، وعلي صفحتها الاولي تعليمات، أن يفتح الصفحة الاولي مع الرحيل الكبير، والا يفتح الثانية الا بعد أن يذوق ويعرف الاولي.

خرج وفي داخله شئ من الرغبة واللهفة والاشتهاء يدفعه إلى الرحيل الكبير-الذي لا يعرفه ولكن علي يقين منه- كان يهمه أن يهرب بالكنز وحده، هناك في خلوته التي لا يعرفه فيها احد،

أن يكون وحده، حتي اللغة، كان يريد لغة له وحده لا تشوشها لغة اخري.

لا يفتحها الا وقت الرحيل الكبير، لم يفهم سيد ما هو الرحيل الكبير.

نادت عليه إدارة الحجر الصحي، ليذهب إلى غرفته ويأتي بحقائبه استعدادا للرحيل، قام سيد وودع كل من يعرفه من الجالسين، عادل-رفيق غرفته-والرجل المهم وفهمي صادق ثم وضع قبلة علي رأس شيخه في هدوء بعد أن احتضنه، ثم لوح للأخرين ودعا لهم بالشفاء العاجل .

كان ينتظر سيد في الخارج سيارة الإسعاف التي تنقل النزلاء، فألقي علي السائقين التحية، كانوا بنفس الهيئة التي كانوا عليها عندما أوصلوه إلى الحجر الصحي، ولم يكن يعرفهم، ولم يتذكروه.

انطلقت سيارة الإسعاف، كالنعش الطائر، عبر شوارع مرسي مطروح المكتظة بالسكون المظلم، في وقت الظهيرة.

ركب سيد في المقعد الخلفي ثم سريعا ما استلقي علي سرير المرضي، ولم يدري بنفسه الا وهم يخبروه أنه علي مشارف القاهرة، فقد راح في نوم عميق.

كانت المدينة كأنها مدينة أشباح، اختار أن ينزل في اقرب مكان من سكنه.

ذهب إلى سكنه، وحمل بقية ما يخصه منها، وودع صاحبها، وانطلق إلى بلدته ليزور أمه.

ثم عاد إلى القاهرة موليًا شطره إلى السفارة الأمريكية، ليقف في الطوابير الممتدة أمامها، من الأطباء، الذين بحوزتهم طلبات للسفر اليها، و استنجدت بالاطباء بعد أن عصف بصرح أمريكا ريح الفيروس. ايقن أن هذا هو الرحيل الكبير الذي لمح به الشيخ.

سرعان ما قبل طلبه، ولما حان وقت رحيله، قام بزيارة خاطفة لمولاه عبد المولي في الإسكندرية، ليودعه ويطلب منه أن يدعوا له.

كان الشوق يدفعه ليفتح الصفحة الاولي من الكنز الذي كان لا يفارقه.

ركب الطائرة ،وقبل أن تقلع ،فتح ليقرأ الصفحة الاولي، التي كان مكتوبا فيها: أنت كل شيء ولا شيء.

طوي الصفحة ثم همس بكلمات من عينيه الدامعتين في اذن القاهرة.

استقر هناك وتزوج من أمريكية، وأنجب ثلاثة أبناء، وسمي الابن الأكبر عبد المولي.

ولم يعد إلى مصر إلا عندما علم بوفاة مولاه عبد المولي فحضر، وزار قبره، كان ذلك بعد خمسة عشر عامًا من الرحيل الكبير، حيث كان خلالها قد ذاق وعرف وأنفق ثلث الكنز.

هم أن يزور الساحل الشمالي والحجر الصحي، ليستعيد أيامه الخوالي، ولكن لم يسعفه الوقت.

وأخيرًا عاد بعد ثلاثين عاما أخري محمولا علي كتف ابنه عبد المولي، الذي طار به من أمريكا، ليدفنه بجوار مولاه عبد المولي كما أوصي، وكان قد اتم قبل وفاته انفاق الكنز كله، بعد أن ذاق وعرف، واوصى أن يكتب على قبره.

هنا يرقد كل شيء ولا شيء...

تمت

(القاهرة 2020-4-7)

المُحتَوياتْ

الإهداء 5

صداقة مودرن!.. 7

سقوط النائب في قبضة «كروونا» 12

رحلة الحَجْر الصِحي 18

طبيعة ساحرة – حول الحجر الصحي 28

الوافد الهائج! 34

تطلعات برجوازية 44

قميص أبو المجد 51

القميص المسموم!.. 61

حواراتي مع الرجل المهم 66

رجل مهم يبحث عن الحقيقة 82

الباحث عن ضحكة حقيقية! 89

عبد المولى صالح 93
الطريق إلى السماء 99
تجليات الشيخ 104
الخروج والرحيل 111